مكتبة
الأسرة
1999

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الدينية

عالمية الإسلام

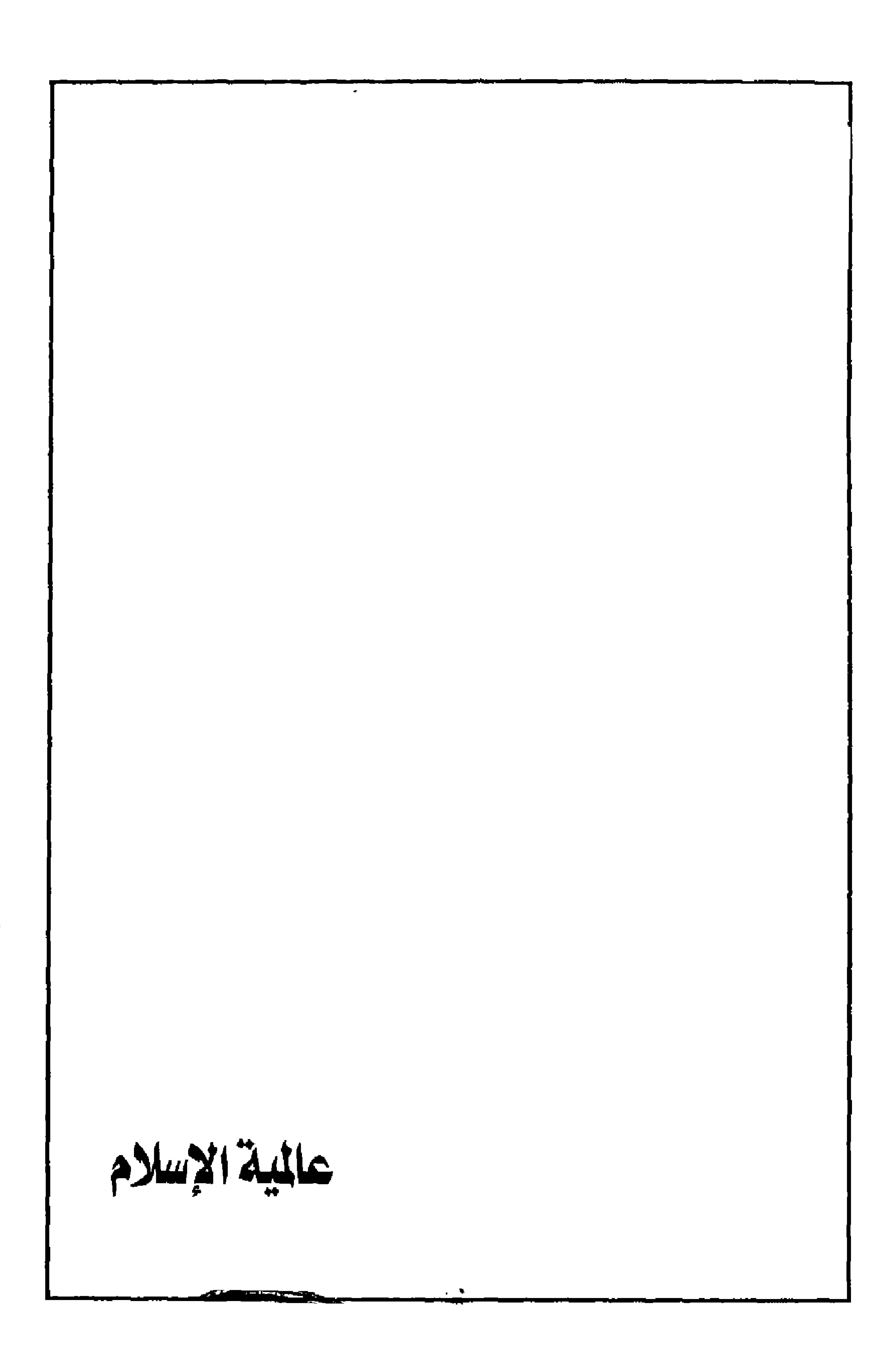
د. شوقى ضيف

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

<u>الاسكندرية</u>



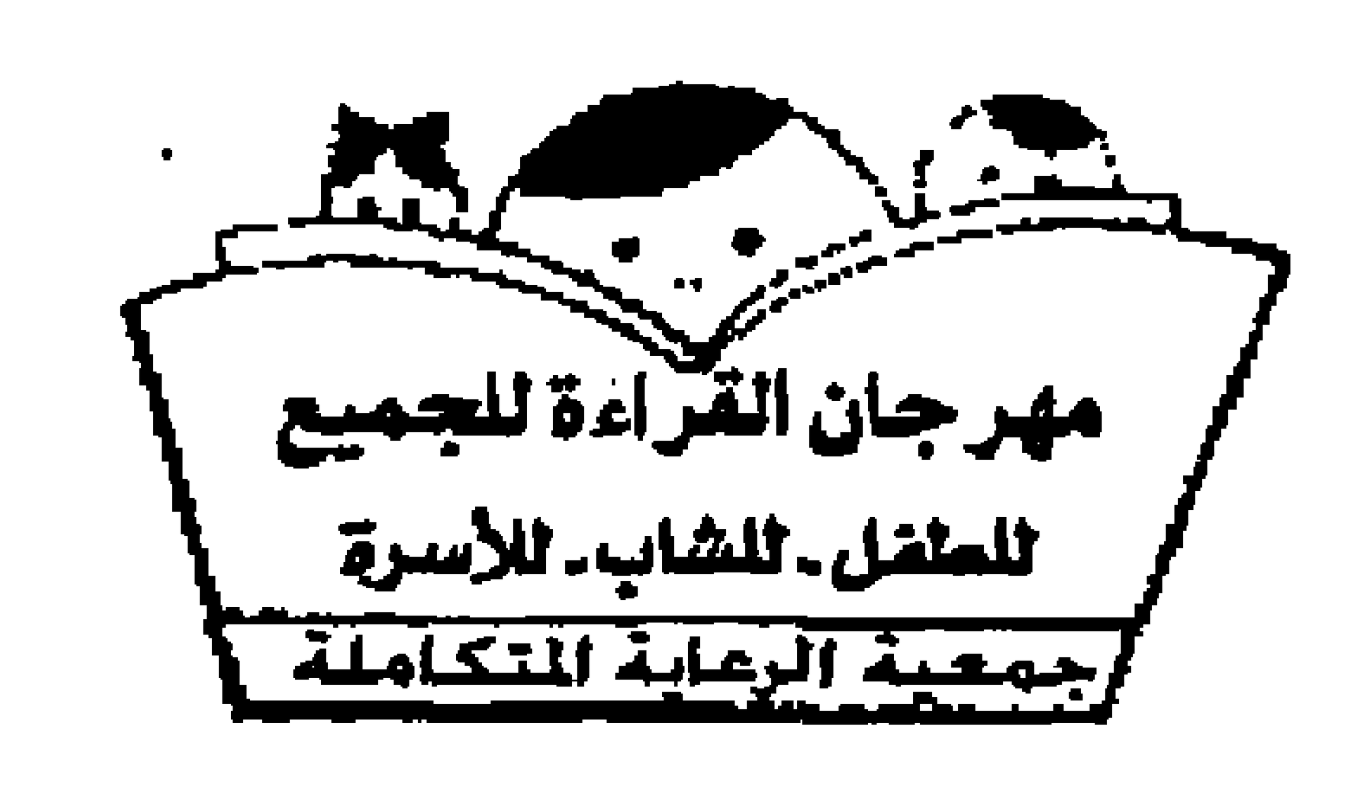
عالمية الإسلام

طبعة خاصة من **دار المعارف**
لمكتبة الأسرة
بالإشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع
٩٩/١٠٤١٨
I.S.B.N. 977-01-6345-7

عالمية الإسلام

د. شوقي ضيف



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الدينية)

عالمية الإسلام

د. شوقى ضيف

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه كلمات موجزة عن عالمية الإسلام : الدين العظيم الذى اختاره الله – كما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية – ليكون خاتمة دياناته السماوية لتسعد به البشرية عن طريق تعاليمه الربانية سعادة كبرى فى الدنيا والآخرة . ووضع الله فيه قانونا عالميا ملزما للمسلمين وغيرهم : أن تكون الحرية الدينية مكفولة لجميع الناس ، فلا إكراه ولا قهر فى الدين لأحد، والتزم بذلك الرسول ﷺ ، والتزم به الخلفاء الراشدون ، والتزم به المسلمون منذ فتوحهم على مرّ العصور . والإسلام هو الدين الوحيد الذى عاش فى دياره كل أصحاب الملل إلهية ووثنية ، مع صيانة معابدهم وأموالهم ، وأن تكون لهم محاكم خاصة بهم كنسية وغير كنسية من رؤساء أديانهم . وكانوا جميعا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم فى ذمة الإسلام وحمايته .

ومن أهم مظاهر عالمية الإسلام أن فتح فى دياره لأهل الذمة جميع وجوه التعايش المادى من زراعة وصناعة وتجارة ، وأثرى كثيرون منهم ثراءً واسعا تمثله « مارية القبطية » التى استضافت الخليفة المأمون وحاشيته وجنده حين مرَّ بضيعتها فى زيارته لمصر . وحتى أبواب الدواوين والأعمال الحكومية كانت لا توصد فى وجوههم منذ معاوية وابنه يزيد . وأخذ يتسع استخدام العباسيين لهم منذ القرن الثالث الهجرى ، وارتفع بعضهم إلى مرتبة الوزارة فى عهد الدولة البويهية فى العراق وإيران وفى عهد الدولتين : الطولونية والفاطمية بمصر . ومن تتمة هذا التعايش بين المسلمين وغير المسلمين مشاركتهم لهم

فى أعيادهم ، وبخاصة أعياد النصارى والمجوس . وكان أهل الذمة يؤدون للدولة الجزية ، ولم تكن ضريبة دينية ، كما قد يظن ، إنما كانت ضريبة دفاع ، يؤديها - وحده - القادر على حمل السلاح من الشباب والكهول نظير إعفائه من التجنيد ، إذ لم يكونوا يشتركون فى حروب الجيوش الإسلامية ، وكانت لا تتجاوز دينارا واحدا فى العام .

ورافق هذا التعايش المادى السديد بين المسلمين وغير المسلمين تعايش فكرى قويم نقل فيه الأخيرون إلى المسلمين كنوز العلوم والفلسفة عن اليونان وغيرهم من الفرس والهنود ، وسرعان ما استوعبوها وأضافوا إليها إضافات باهرة أتاحت لهم علماء عالميين فى الكيمياء والرياضيات والطب ، وفلاسفة عالميين وضعوا الفلسفة الإسلامية ، وظلوا جميعا - وحدهم - يقودون الحضارة العالمية العلمية والفلسفية ستة قرون من القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى إلى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى . وهو دور حضارى عالمى للإسلام يكتب فيه الغربيون المجلدات الضخام . وتكاثرت فى هذا الدور المناظرات والمجادلات العقلية بين المسلمين وأهل الذمة فى العقائد ، وفتح لهم المتكلمون أبواب مجالسهم للحوار العقلى فيها ، مما يصور تعايشا فكريا مع غير المسلمين إلى أبعد الحدود ، بفضل عالمية الإسلام الذى تعامل معهم فى كل شىء على قدم المساواة .

وجعل الله الإسلام دينا عقلانيًّا ، فلم يؤيده - مثل الديانات السماوية السابقة - بمعجزات مادية حسية ، بل طلب إلى المسلمين استخدام عقولهم فى تدبر آياته الكونية وما أودعها من نظم وسنن دقيقة سديدة ، ليشهدوا شهادة عقلية بصيرة بأن للكون إلها خلقه وأحكم خلقه . ويحثّ الله الرسول والمسلمين على الدعوة للإسلام بالحكمة والموعظة والمجادلة الحسنة ، وقد استخدم الله فى القرآن الكريم هذه الطرق الثلاثة . ويراد بالحكمة البراهين العقلية على وجود

الله ووحدانيته ، وأكثرَ الله من الموعظة الحسنة بقصص الرسل والتخويف من عذاب النار ، كما أكثر من المجادلة اللينة الرقيقة . وجعل الله ورسوله العقل حكما فى الشريعة وأصلا أساسيا – بعد القرآن والسنة – بالنظر التام النافذ فى فروعها الكثيرة . وأمر الله ورسوله أمرا حاسما بنبذ الخرافة والسحر والتنجيم والكهانة ارتقاء بعقل الإنسان عن الاعتقاد فى الأباطيل ، وبذلك بُنيت الشريعة الإسلامية الموجهة للبشرية عامة بناية عقلية رفيعة .

والإسلام يعانق العلم منذ أول آيات من القرآن الكريم نزلت على الرسول ، ويرفعه الله درجة فوق تسبيح الملائكة ، وينوِّه الرسول به طويلا . ولفت القرآن المسلمين بما فيه من إشارات إلى العلوم الطبيعية والفلكية والطبية ، مما جعلهم يطلبونها عند الأجانب بعد استقرارهم فى الأمصار الإسلامية ، ونقلوا إليهم بكل دقة تراثها الفارسي والهندى واليونانى ، كما نقلوا عن اليونان التراث الفلسفى . وأخذت تنشأ مكتبة عامة كبرى لعهد الرشيد والمأمون . ونشطت العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل ، وعمل على ازدهار هذا النشاط مكتبات عامة وخاصة فى كل بلد عربى ومكتبات المساجد ودكاكين الوراقين ، وتكاثر العلماء والمترجمون والفلاسفة . وتغلغلت العلوم والفلسفة فى جميع الطبقات حتى الطبقات الشعبية ، وتتكاثر الجامعات والمدارس ، وتشارك المرأة فى هذه النهضة العلمية بحظ غير قليل . وقرأ بعض المثقفين عندنا فى كتابات الغربيين أنه حدثت عندهم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر خصومة عنيفة بين الكنيسة والدولة لوقوفها ضد العلم والعلماء فطبقوا ذلك خطأ بين الإسلام والدولة ، والإسلام ليس فيه كنيسة ، وهو – كما رأينا – لم يعارض العلم يوما بل لقد دفع المسلمين إلى إحداث دَوْر الإسلام – كما أسلفنا – العلمى العالمى .

ويأمر الله رسوله والمسلمين أن يتمسكوا بالعدل الذى لا تصلح حياة البشر جميعا بدونه ، ويقول الله فى القرآن الكريم مرارا إنه خلق الكون وكائناته وكل ما فيه بالعدل حثا لجميع الناس على تمثله . ويأمرهم أن يتخذوه فى الكيل

والوزن ، وفى ذات أنفسهم ، وفى عبادتهم له ، وفى علاقاتهم بأفراد الأسرة وبالأقارب والجيران ، وفى جميع الأقوال والأفعال . ويقول الله للمسلمين (جعلناكم أمة وسطا) أى عدولا تتوسطون فى كل شىء فلا تُفْرطون ولا تقصِّرون حتى فى الصدقة وفى عبادة الله ، إذ الإسلام ينكر الانقطاع والعزلة للنسك . ويشدد الله ورسوله فى العدل بالقضاء والحكم بين الخصوم دائما . ويدعو الله مرارا إلى العدل الاجتماعى بين الأغنياء والفقراء عن طريق الزكاة والصدقة ، ويجعله عبادة خالصة لوجهه مثل الصلاة حثًّا قويا عليه ، وبذلك حلَّ الإسلام للبشر هذه المشكلة العالمية مشكلة الفقراء والأغنياء ، بينما حاولت الشيوعية حلها عن طريق التسلط والقهر وحرمان الإنسان من حريته وماله مع الإلحاد والتمرد على الله ودياناته ، فكان طبيعيا أن تسقط وتنهار .

وطلب الله — فى شريعته الإسلامية — المساواة بين البشر جميعا فى الواجبات والحقوق العامة ، بحيث لا يستعلى أحد على الناس ، وألغى فى الإسلام الكهنوت وقيامَ طائفة مقدسة بين البشر وبين الله ، فالبشر جميعا أمامه متساوون . وتتساوى فى الإسلام جميع الأجناس والأعراق والألوان . وللرسول أمثلة عليا فى المساواة التامة بينه وبين الصحابة ، وتستحيل المساواة بين المسلمين أخوةً وثقى ، وأعظم أخوة تمت فى صدر الإسلام أخوة الأنصار للمهاجرين . وطبق الرسول المساواة على المسلمين فى الحدود والعقوبات دون أى استثناء . وبفضل هذه المساواة التامة بين المسلمين لم تتكون فى مجتمعاتهم — على مر العصور — أى صورة من صور الطبقية ، وألغى الإسلام ما كان فى بعض دياره من طبقات قديمة كما كان الشأن فى إيران والهند . وجعل الله التسامح — فى شريعته الإسلامية — أساسا راسخا ، وأعظم صوَره قوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجْرُهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ وهل يوجد تسامح مثل هذا التسامح الربانى حتى مع الصابئة . ويطلب الله من المسلمين أن يتسامحوا مع

المشركين بحيث يتصدقون على فقرائهم كما يتصدقون على فقراء المسلمين ، وبحيث يعفون لطغاتهم العتاة عن إيذائهم العنيف لهم . وللرسول أمثلة رفيعة من التسامح – فى فتحه لمكة – لأعدائه ومحاربيه القرشيين . واستجابة لأوامر الله تمثل المسلمون التسامح مع غيرهم فى جميع ديارهم ، فساد بينهم وبين المسيحيين فيها صور كثيرة من التعاون والبر والمودة . وحظى اليهود بمعاملة سمحة فى الديار الإسلامية ، وخاصة فى الأندلس والمغرب الأقصى ، قرونا تلو قرون ؛ ومع ذلك نراهم – فى هذا العصر – يخرجون المسلمين الفلسطينيين من ديارهم وينكلون بهم تنكيلا فظيعا أليما .

ويُحْكم الله الروابط فى الأسرة الإسلامية فلا تنفك أبدا ، وفى مقدمتها البر المتصل بالآباء والأبناء . ومن الروابط رابطة الميراث ، وجعل الله فيها للذكر مثل حظ الأنثيين لمسئولياته المالية الكثيرة ، كما جعل زواج الرجل بالمرأة رابطة مقدسة تتم أمامه وبإرادته ، وجعل بينهما مودة ورحمة . وألزم الله الرجل بالإنفاق الكامل على أهله . وسوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى المسئولية السياسية والاجتماعية وفى الكسب لمعاشها مما جعلها – فى العصر الحاضر – تتولى جميع الأعمال حتى الوزارات بل حتى رياستها فى بعض البلدان الإسلامية ، وكفل الإسلام لها استقلالا اقتصاديا لم تظفر به المرأة الغربية حتى اليوم . ولها مشاركة من قديم فى العلوم والآداب . ولا أشك فى أن وقوف الغربيين على مكانتها فى المجتمع الأندلسى هو الذى جعلهم يرفعون مكانة المرأة فى ديارهم ، وحرىٌّ بالغرب أن يتمثل روابط الأسرة الإسلامية ويطبقها فى مجتمعاته .

ويدعو الله دعوة عالمية كبرى إلى التمسك بالسلوك القويم المتمثل فى مجموعة كبيرة من الفضائل ، منها – كما مرَّ – استخدام العقل ، والشغف بالعلم وبالعدل ، والمساواة بين البشر ، والتسامح مع كل الملل . ولهذه الفضائل أخوات أخرى فى الإسلام تسعد البشرية والمسلمين فى الدنيا والآخرة ، منها

فضيلة العمل حتى لا يكون الإنسان عالة على المجتمع ، والوفاء بالعهد ، والرحمة للإنسان والحيوان حتى ليسمَّى الإسلام دين الرحمة . ومن ذلك الشعور بالكرامة ، وقول الحق ، والصدق ، والتواضع الحميد ، والحياء ، والصبر ، والعفاف ، والحلم ، والعفو ، ورعاية اليتيم . ودعا الله البشرية والمسلمين إلى نبذ الموبقات من مثل الزنا الآثم ، وشرب الخمر ، ولعب القمار ، والربا ، والكبر ، وشهادة الزور ، والظلم ، والكذب ، والحسد ، والخداع ، والسب للإنسان والحيوان ، والسخرية ، والطعن فى الناس ، والظن السيئ ، والتجسس ، والغيبة ، والنميمة ، والشماتة .

ويذكر الله والرسول من آداب المجالس التوسع للقادمين وأن لا يقوم أحد لقادم . كما يذكر الله من آداب الزيارة الاستئذان فى دخول البيوت . ومن آداب اللقاء تحية المسلم لأخيه ، وجعلها الله بلفظ السلام وفرضه في الصلاة ، وسمى به اسما من أسمائه الحسنى تأكيدا لنشره في الأرض ، والحث عليه ، حتى تأخذ به الأمم وتشيع بينها المودة والإخاء ، والإسلام — بذلك — يدعو إلى السلام منذ أربعة عشر قرنا أو تزيد .

ولا أشك فى أن الصحابة والمسلمين فى القرن الأول الهجرى كانوا يستشعرون — بوضوح — هذه المعانى السالفة جميعا لعالمية الإسلام ، ولذلك بذلوا فى نشره كل ما وسعهم من جهد ، واستطاعوا أن ينشروه فى أكثر من نصف سكان العالم المعروفين لزمنهم . وأخذ ينتشر — بعد ذلك — بقوته الذاتية ، حتى عمَّ إفريقيا المدارية والاستوائية والشرقية ، وامتد فى آسيا ، وشمل أواسطها والترك والمغول وأنحاء من الصين والهند ، وعمّ فى ماليزيا وأندونسيا ونزل فى جنوبى الفلبين . ولا تكاد توجد بلد وراء أواسط إفريقيا إلا وبها عشرات الآلاف من المسلمين ، وبالمثل فى دول أمريكا اللاتينية

والولايات المتحدة وكندا والبلاد الأوربية ، ويبلغ عدد المسلمين فى العالم الآن أكثر من سبعمائة مليون . وإنه ليجب عليهم اليوم أن يعملوا على تعريف الأمم بالإسلام وتعاليمه التى وضعها الله لخير البشرية كى يهيئ لها ما تأمله من السعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة .

ولعلى – بهذا التقديم – استطعت أن أعرض موضوعات هذا البحث المجمل فى عالمية الإسلام : الدين الإلهى العظيم . ولا أشك فى أنه ستتلوه بحوث فيها أكثر دقة وأكثر شمولا وعمقا . والله – وحده – أسأله الهدى والتوفيق .

القاهرة فى غرة رجب سنة ١٤١٧ هـ .

شوقى ضيف

عالمية الإسلام

١

فى القرآن الكريم والحديث الشريف

يُذكر فى القرآن الكريم مرارًا أن كل رسول من رسل الله أُرسل إلى قومه وحدهم ما عدا محمدًا صَلّى اللّه عليه وسلم ، فنوح أُرسل إلى قَومه كما فى أول سورته يدعوهم إلى عبادة الله وتقواه ، وبالمثل إبراهيم كما فى سورة العنكبوت في قوله تعالى :﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه﴾ ولوط كما فى قوله- عزّ شأنه- فى سورة الشعراء : ﴿كذّبتْ قومُ لوط المرسلين﴾ وهود كما فى سورة هود : ﴿وإلى عاد أخاهم هودا .. ألا بعدًا لعاد قوم هود﴾ وصالح أُرْسل إلى قومه ثمود كما فى سورة الأعراف :﴿وإلى ثمودَ أخاهم صالحا﴾ وشعيب أُرْسل إلى أهل مدين كما فى نفس السورة :﴿وإلى مَدْيَن أخاهم شُعيبًا﴾ وعيسى أُرسل إلى بنى إسرائيل كما فى سورة الصف : ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسولُ الله إليكم﴾ .

أما محمد - صلى الله عليه وسلم - فأُرسل إلى جميع الناس ، يقول الله - جَلّ شأنه - فى سورة الأعراف مخاطبا رسوله : ﴿قُلْ يا أَيُّها الناسُ إنى رسول الله إليكم جميعا﴾ . وذُكر فى كتب التفسير أن هذه الآية نزلت فى جماعة من اليهود كانوا يقولون إن محمدًا صلى الله عليه وسلم نبىٌّ ولكنه نبى للعرب خاصةً ، والله يرد عليهم قولهم ويطلب منهم فى نفس الآية أن يؤمنوا به وبالرسول قائلا : ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبىِّ الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتَّبِعوه لعلكم تهتدون﴾ . والله- فى الآية يشهد لرسوله بأنه مرسل إلى جميع الناس عَربا وغير عرب . ويقول فى سُور يوسف وصَ والتكوير فى وصف القرآن : ﴿إن هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾ وفى سورة القلم : ﴿وما هو إلا ذكرٌ

للعالمين ﴾ وفسَّر ابن منظور كلمة ذكر فى الآية بأنها تعنى أن القرآن كتاب فيه تفصيل الدين ، وكأنه يقول – تبارك اسمه – : ما القرآن إلا شريعة للعالمين . وكلمة العالمين جمع عالم بفتح اللام أى أن القرآن شريعة للعالم كله بجميع أجناسه وشعوبه . وجُمع لفظ عالم للدلالة على الاستغراق وأنه موجه للعالم جميعه شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .

وقد تكررت الآية فى القرآن ردا على المشركين فى قولهم ما القرآن إلا أساطير كما جاء فى سورة الأنعام : ﴿يقول الذين كفروا إن هذا ﴾ أى القرآن ﴿إلا أساطير الأولين ﴾ أى قصصهم وأخبارهم التى كانوا يسمرون بها ليلا . وزعموا أنه سحر كما جاء فى سورة الصافات : ﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾ وقالوا إنه شعر كما جاء فى سورة الحاقة : ﴿وما هو بقول شاعر﴾ وقالوا إفك وكذب كما جاء فى سورة الفرقان : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ افتراه ﴾ أى كذب اختلقه ، ويرد الله على ذلك كله بأن القرآن ذكر وشريعة للعالمين والناس جميعا .

ويخاطب الله رسوله فى سورة الأنبياء قائلا : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ فهو رحمة مهداة إلى الخلق كما جاء فى حديث نبوى : رحمة فى خُلقه وجميع صفاته وشمائله ، ورحمة بشريعته المهداة إلى العالم إذ بُنيت على الرحمة واليسر والتخفيف عن الناس . وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يكثر فيها من التيسير والرُّخَص مستضيئا بقوله تعالى فى سورة البقرة ﴿يريد الله بكم اليُسْرَ ولا يريد بكم العُسْر﴾ . وكان بعض الصحابة لا يأتى ما يذكره لهم من الرخص طلبا للمشقة فى العبادة إرضاء لربه ، فكان يضيق بذلك ويخطب فيهم ناهيا لهم عن الامتناع عن أداء الرخص فى الشريعة ، لأنها قامت على الرحمة والرفق بالناس . ويقول الله لرسوله فى سورة سبأ : ﴿وما أرسلناك إلا كافَّة للناس بشيرا ونذيرا﴾ فالله لم يرسل محمدًا لقريش وحدها ولا للعرب وحدهم ،

بل أرسله للناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها ليبلغهم رسالته العالمية ، مبشرًا من آمن به ، فوحَّد الله واعتنق شريعته الإسلامية وما بها من أحكام وأوامر ونواهٍ بأن الله سيدخله جنته وينعم فيها نعيما أبديا ، وينذر مَنْ أشرك بالله وعبد آلهة متعددة ورفض شريعته ورسالته بأن مصيره إلى النار وعذابها الأليم فى الآخرة .

ويكرر الرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – فى أحاديثه أنه مرسل إلى الناس جميعا ، ويقول ابن كثير فى تفسيره إن الأحاديث فى ذلك أكثر من أن تحصر وإن ذلك معلوم من الدين ضرورة . ويذكر مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « فُضِّلت على الأنبياء بست » منها قوله : صلَّى الله عليه وسلم : « أُرْسلتُ إلى الخلق كافة » وعن جابر بن عبد الله قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « أعطيت خمسًا لم يُعطَهن أحد قبلى : كان كل نبىٌّ يُبْعَثُ إلى قومه خاصّة ، وبُعثت إلى كل أحمر وأسود .

والعرب تسمِّى الأبيض أحمر أى أنه بُعث إلى البشر جميعا . وكان الرسول – صلَّى الله عليهِ وسلم – يستشعر ذلك إلى أقصى حد ، مما جعله يرسل إلى بعض القبائل يدعوها إلى اعتناق دين الله ، ويكتب أصحاب السيرة النبوية فصولا عن بعوثه ، ويعرضونها فى شكل غزوات ، منذ السنة الأولى للهجرة ، وهى إنما كانت لإبلاغ القبائل التى ذهبت إليها دعوة الإسلام ، وظل الرسول يبعثها حتى فُتحت مكة وأسلمت ثقيف سنة ثمان من الهجرة ، فأقبلتْ على الرسول وفود العرب من كل قبيلة ومن كل وجه يعلنون دخولهم فى الإسلام . وإيمانا منه بعالمية رسالته يرسل جيشا إلى مؤتة لإعلام الروم برسالته ، ويلتقى بجيش لهم ولا يكتب له النصر . وفى السنة التاسعة من الهجرة تتوالى كتبه إلى الأمراء والملوك يدعوهم إلى اعتناق الإسلام ، فيدعو النجاشى المسيحى ملك الحبشة وكسرى الوثنى ملك إيران وولاته فى شرقى الجزيرة كما يدعو هرقل المسيحى

إمبراطور بيزنطة وأساقفة الشام وأمراءها والمقوقس صاحب مصر صادرا فى ذلك كله عن الوحى القرآنى وأن عليه أن يوجه دينه إلى أنحاء العالم . وخرج بنفسه على رأس جيش لإبلاغ الإسلام إلى الشام ، وبلغ تبوك وآثر العودة ، ولبَّى نداء ربه فأتمَّ أبو بكر وعمر للإسلام انتشارا عالميا عظيما ، إذ أظلَّ فى عهدهما العراق وإيران كما أظل الشام ومصر وشطرا من البلاد المغربية حتى تونس .

٢

الحرية الدينية

وضع الله – جلَّ شأنه – فى القرآن الكريم قانونا عامًّا التزم به الرسول – صلَّى الله عليه وسلم – والمسلمون فى جميع عصورهم وديارهم ، وهو : ﴿لا إكراه فى الدين﴾ . وبذلك كان الإسلام يكفل دائما فى بلدانه لجميع الناس شرقا وغربا على اختلاف مللهم ونحلهم الحرية الدينية ، فلم يُجبَرْ أحد على اعتناق الإسلام مكرها قهرا ، بل ترِكَ الناس وما اختاروا لأنفسهم من الدين . ويقول الله لرسوله فى سورة يونس منكرا عليه شدة حرصه على إسلام المشركين من أهل مكة : ﴿ولو شاء ربُّك لآمن مَنْ فى الأرض كلُّهم جميعا أفأنت تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين﴾ . والله يقول لرسوله إنه لو شاء لجعل الناس جميعا متساوين فى عقولهم وفى إدراكها السليم لهداه والإيمان بوحدانيته ، ولكنه خلقهم متفاوتين فى عقولهم وفى إدراكهم لحقيقة الهدى والإيمان ، ولذلك ينكر على رسوله حرصه على إسلام أهل مكة الوثنيين وسعيه لتحقيق ذلك بكل ما يستطيع من الوسائل الممكنة ، مما جعل الله – عزَّ شأنه – يُنْزله منزلة من يحاول إكراه أهل مكة على الإيمان بالله . وفى ذلك تعريض

بالثناء على الرسول فى جهاده لإبلاغ رسالته وبيان للسبب الإلهى فى عدم استجابة أهل مكة له .

والتزم الرسول – صلّى الله عليه وسلم – بما أوجبه عليه ربه ، فكان لا يُكره – ولا يقبل أن يُكْره أحد صحابته – شخصا على الدخول فى الإسلام . فمن هداه عقله له وانشرح صدره واستنارت بصيرته له دخل فيه على بيِّنة ، ومن أضلّه عقله وعَمِيَتْ عليه دلائل هداه انصرف عنه . وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – : ﴿لا إكراه فى الدين﴾ نزلت فى مسلم من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصينىّ ، كان له ابنان نصرانيان فقال للنبى – صلّى الله عليه وسلم – : ألا أستكرههما على الإسلام فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ، فأنزل الله فيه الآية وأصبحت قانونا مقدسا عند الرسول والمسلمين . وعن عتاب بن شمير قلت لرسول الله – صلّى الله عليه وسلم – : يا رسول الله إن لى أبا شيخا كبيرا وإخوة ، فأذهب إليهم فعسى أنْ يسلموا فآتيك بهم ، فقال له الرسول ، إن أسلموا فهو خير لهم ، وإن هم أقاموا (أى على دينهم) فالإسلام واسعٌ عريض أى دعهم وما يختارون بكامل حريتهم . ولم تَرْوِ كتب التاريخ الإسلامى عن أى شخص يدين بدين إلهى أو وثنى فى الديار الإسلامية أنه أُجْبر على الدخول فى الإسلام . وكان من يسلم – فى العصور الإسلامية – ينبغى أن يعلن إسلامه أمام قاض وشهود ليثبت أنه أسلم حراً طواعية مختارًا لدين الإسلام . ويقول ابن العطار الأندلسى فى القرن الرابع الهجرى إنه لابد لإسلام نصرانى أو يهودى فى الأندلس من وثيقة يقدمها للقاضى وعليها شهادة شهود بأنه أسلم غير مكره وغير فارّ من شىء وغير متوقع لأمر ، وأنه اختار الإسلام بعد أن وقف على شريعته ، وعلم أنه ناسخ لجميع الأديان وأنه الدين الذى لا يقبل الله سواه ، وأنه أسلم على يد فلان القاضى أو صاحب الشرطة أو صاحب المدينة أو صاحب السوق أى المحتسب .

وعَدَّ المسلمون معاهدة الرسول لأهل نجران اليمنيين المسيحيين القانون

الملزم لمحافظة المسلمين لأهل الملل إلهية ووثنية على شعائرهم الدينية ومعابدهم وأموالهم وأن لا يُمَسَّ بأى صورة رجالُ دياناتهم ، وفيها يقول الرسول :

« لنجران وحاشيتها جوارُ الله وذمَّة محمد النبىّ رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعِهم (كنائسهم) وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، ولا يغيَّر أسْقف من أسقفيَّته ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته » . وعلى ضوء هذه المعاهدة النبوية كتب الخليفة عمر بن الخطاب عهدًا لأهل إيليا (بيت المقدس) وفيه يقول :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصُلْبانهم وسَقيمهم وبريئهم : أنه لا تُسْكَنُ كنائسهم ولا تهدم ولا يُنتَقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ، ولا يُكْرَهون على دينهم ولا يضارّ أحد منهم .. وعلى ما فى هذا الكتاب عهدُ الله وذمَّة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » .

وقد ترسَّم الخليفة عمر فى عهده معاهدة الرسول لأهل نجران مع شىء من التفصيل مثل قوله : إن كنائس المسيحيين لا تسكن ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها شىء . والتزم عمر والمسلمون بذلك لا إزاء كنائس النصارى ومعابدهم فحسب ، بل أيضا : إزاء معابد اليهود وبالمثل معابد المجوس عبدة النار فى إيران والصابئة عبدة الكواكب فى شمالى العراق . وكان رئيس اليهود ببغداد يسمى رأس الجالوت ورئيس النصارى يسمى الجاثليق ، وكان الخلفاء يكتبون لهما عهودا بحياطتهما والصيانة لهما هما وأهل ملتيهما وحماية معابدهم .

وازدهرت الأديرة فى العراق والشام ومصر ازدهارا عظيما مما جعل كثيرين يكتبون عنها ، إذ كانت تقدم لروّادها من الشعراء والمجّان أمثال أبى نواس الخمر المعتقة ، وكانت متناثرة فى ضواحى المدن العراقية والشامية والمصرية . ويقال إنها بلغت فى بغداد وضواحيها خمسة عشر دَيْرًا ، ومن أهمها دير قنى

كان شرقي بغداد ، ويقول الشابشتي في وصفه بكتابه الديارات : « ديرٌ حسن نَزِهٌ عامر » ، فيه مائة صومعة لرهبانه والمتبتِّلين فيه ، لكل راهب صومعة ، وهم يتباعون الصوامع بينهم من ٥٠ دينارًا إلى ألف . وحول كل صومعة بستان فيه من جميع الثمار والنخل والزيتون ، وتباع غلته من خمسين دينارا إلى مائتين . وعلى الدير سور عظيم يحيط به ، وفي وسطه قناة جارية ، وعيده الذى يجتمع الناس إليه عيد الصليب » .

وكانت مصر مليئة بالأديرة ، وكان من أهمها دير أنطانيوس شرقي إطفيح من الوجه القبلي ، وله أوقافٌ وأملاك متعددة – كما فى تاريخ أبي صالح الأرمني – وعليه حِصْنٌ يدور به ، وداخله بستان كبير ، وفيه نخيل مثمر وأشجار تفاح وكمثرى ورمان وغير ذلك ، وأرضه مزروعة بالبقول ، وله ثلاثة عيون ماؤها يجرى دائما ويُسْقَى منها البستان ، وفيه فدان وسدس خاصان بالكَرْم أو العنب ، وفيه ألف نخلة ، وبه قصر كبير ، وصوامع للرهبان مطلة على البستان » . وإنما ذكرت هذين الديرين فى مصر والعراق لأدل على المعاملة الطيبة لمسلمى العراق ومصر لرهبان المسيحية فيهما وإعطائهم الحرية الدينية التامة لأداء شعائرهم الدينية . بينما كانت الكنيسة الملكانية الرسمية فى بيزنطة تعادى عداء شديدا رهبان الكنيسة اليعقوبية ، حتى اضطرتهم فى عهد الإمبراطور نقفور إلى مبارحة أنطاكية واصفين بطارقتها بأنهم أضلُّ من فرعون وأشد كفرا بالله من بختنصرٍ . ولما أعادت بيزنطة فتح مدينة ملطيَّة فى ديار الشام الشرقية وكانت كنيستها يعقوبية أخذوا البطريرك وستة من كبار أساقفتها إلى القسطنطينية ، وسجنوهم بها ، ثم نفوا البطريرك إلى بلغاريا ومات على حدودها كما مات أحد الأساقفة ، ورجموا زميلا له بالحجارة أمام باب قصر الإمبراطور ، واضطر الباقون إلى إعلان كفرهم بالمذهب اليعقوبى واعتناقهم للمذهب الملكانى فرارا من الموت ، وأعيد تعميدهم . ولم يحدث شيء مماثل

لذلك أبداً فى تاريخ الإسلام وحكامه وشعوبه ، بل كان الحكام دائما أهل سلام ووئام بين المذاهب المسيحية المتناحرة والملل الدينية المتخاصمة . ولما عرف المأمون ما بين المذاهب المسيحية النسطورية والملكانية واليعقوبية من خصومات ومشاجرات عزم على أنْ يصدر لهم كتابا يضمن لكل فريق منهم حرية الاعتقاد وحرية تدبير كنائسهم بحيث يكون لكل فريق مسيحى مهما قلَّ عدده حتى لو لم يتجاوز عشرة أنفس أن يختار له بطريركا خاصا به ، وتعترف الفرق النصرانية الأخرى بصنيعه . غير أن أصحاب الكنائس النصرانية المذكورة آنفا لم يرتضوا منه أن يؤلف هذا الكتاب وينشره فى الدولة مخافة أن تتعدد الفرق المسيحية تعددا كبيرا ، فعدل عن تأليفه .

وكان يحدث فى أحيان قليلة أن يتولى على بلد وال متعصب فيهدم كنيسة أو يهدمها مشاغبون ، فكانت الدولة تسارع إلى بنائها أخذا بعهد عمر بن الخطاب وميثاقه لأهل إيليا الذى حرَّم فيه على المسلمين هدم كنائس النصارى أو انتقاص شيء منها أو من حيِّزها . ويروى أن على بن سليمان والى مصر للرشيد بين سنتى ١٦٩ و١٧١ للهجرة أمر بهدم بعض الكنائس المحدثة بمصر ، فاشتكاه القبط إلى الرشيد ، فعزله . وخلفه على مصر وال جديد ، أذن للقبط فى بناء الكنائس التى هدمها على بن سليمان الوالى قبله بمشورة فقيهى مصر الكبيرين : الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة . إذ قالا : إن تلك الكنائس من عمارة مصر ، واحتجاً بأن جميع الكنائس بمصر إنما بنيت فى الإسلام زمن الصحابة والتابعين .

وتتمة للحرية الدينية التى كانت مكفولة لأهل الذمة من النصارى واليهود وغيرهما أنهم لم يكونوا يتقاضون أمام محاكم الدولة التى تصدر فى أحكامها عن الشريعة الإسلامية إنما كانوا يتقاضون أمام محاكمهم المِلِّية الخاصة بهم كنسية أو غير كنسية ، وكان رؤساء تلك المحاكم الملية يقومون فيها مقام كبار

القضاة فى محاكم الدولة . وكانوا - غالبا - لا يعاقبون إلا عقوبات روحية مثل عزل القُسس والأساقفة عن مناصبهم ، أو منع العلمانيين من حضور الكنيسة ، أو دفع غرامة مالية ، أو الحرمان من رسوم المباركة الدينية ، أو من الدفن على الطريقة النصرانية . ويذكر الرحالة بتاحيا فى القرن السادس الهجرى أن رؤساء اليهود فى الموصل هم الذين يعاقبون مرءوسيهم أى أنه كانت لهم محاكم خاصة بهم يتولاها رأس الجالوت كما أسلفنا أو كبار أحبارهم فى البلدان الإسلامية المختلفة . وكانت الأندلس مثل هذه البلدان ، للنصارى بها محاكم كنسية تنظر فى خصوماتهم وتحكم فيها .

٣

التعايش المادى مع كل الملل

فرض الله ورسوله على المسلمين - كما رأينا - أن يتعايشوا مع كل أصحاب الملل إلهية وغير إلهية - فى ديارهم - معيشة كريمة تقوم على رعايتهم رعاية تامة وحماية أموالهم ومعابدهم ، وكُفلت لهم محاكم كنسية وغير كنسية تفصل فى خصوماتهم . ويدل - بوضوح - على أنهم نعموا بالمعيشة مع المسلمين أن أحدا منهم - طوال القرون الماضية المتعاقبة - لم يُبْعَدْ عن موطنه ، وأنهم كانوا يسمَّوْن أهل الذمَّة إشارة إلى أنهم فى ذمة الإسلام وعهده . ونظرة إلى الأعداد الكثيرة فى الديار الإسلامية من النصارى واليهود والمجوس والصابئة تجعلنا نؤمن بأن المسلمين ظلوا يتعاملون فى العصور الماضية معاملة حسنى معهم جميعا ، ويقال إنه كان ببغداد من النصارى عشرات الآلاف . وكان منهم أكثر سكان مدينتى تكريت والرُّها ، وكانوا بالشام - ولا يزالون - كثيرين . أما فى مصر فكان عدد القبط المسيحيين كثيرا جدًّا . ولما عُنى حسان بن النعمان والى إفريقيا بإقامة ميناء فى الديار التونسية فى القرن الأول الهجرى بدلا من

قرطاجة ، وإنشاء أسطول كبير يحمى شواطئ الديار الإفريقية من غارات الروم ، جلب من مصر ألف أسرة قبطية لمساعدته فى إقامته دار صناعة كبرى وإنشاء الأسطول الكبير . وكان بالمغرب من قديم بقايا نصرانية من الأسر الرومانية التى كانت به قبل الفتح العربى . ويقال إن المنصور خليفة الموحدين فى أواخر القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى بنى قصراً لحرَّاسه من الرماة النصارى ، وكان عددهم عادة خمسمائة ، وكانوا يتقدمون موكبه فى انتقاله من مكان إلى مكان ، وكانت الأندلس تكتظ بالنصارى .

ويقول متز : كان اليهود كثيرين فى العراق ، ويقدر الرحالة بتاحيا عددهم بالعراق فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى بمئات من الآلاف ، ويقول كانوا كثيرين فى المدن والقرى على نهرى دجلة والفرات ، وبالمثل فى مدن الموصل ، وكانوا كثيرين فى مدن إيران ، وكان لهم قرب أصفهان وشرقى مَرْو مدينتان سميت كل منهما باسم اليهودية ، وكان يسكن دمشق منهم عشرة آلاف ويسكن حلب خمسة آلاف ، ويقول بتاحيا إنه لم يكن بالقدس إلا يهودى واحد ، بينما ذكر معاصره بنيامين أنه كان بها من اليهود أربعة ، وكان بالقاهرة سبعة آلاف منهم وبالإسكندرية ثلاثة آلاف ، وبالمثل فى مدن الدلتا . أما فى الأندلس فنعموا بالحياة هناك فى ظل الدول العربية . ولما طردوا من إسبانيا والبرتغال فى مفتتح القرن السادس عشر الميلادى تحوَّل المغرب الأقصى إلى ملجأ لهم .

وكان المجوس كثيرين فى العراق وبموطنهم فى إيران فى القرنين الهجريين الأولين وبخاصة فى شيراز وجنوبى فارس ، وكانت مدينة القرنين شرقى فارس مجوسية خالصة . وكان الصابئة يعيشون فى حرَّان والرَّقَّة ، ومرَّت بهم أواخر القرن الثانى الهجرى فترة ازدهار ، فأقاموا لهم عيدا أشعلوا فيه النيران فى جميع شوارع حرَّان ، وكانت الثِّيران مزدانة بغالى الثياب وبالورود والرياحين وعلى

قرونها الأجراس ، والرجال خلفها بالمزامير . وظلوا يعيشون فى رخاء ، ويصدر لهم من بغداد منشور فى منتصف القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى يأمر فيه الخليفة بصيانتهم وحمايتهم ، مما يدل على أنهم أخذوا يقلون لكثرة من اعتنق منهم الإسلام ، وما نبلغ منتصف القرن الخامس الهجرى ، حتى يقول ابن حزم الأندلسى : إنهم فى جميع بقاع الأرض لايبلغون أربعين شخصا .

وكانت أبواب جميع الأعمال المعيشية مفتوحة لأهل الذمة فى العصور الماضية ويقول الجاحظ إن العامة فى العراق كانت تأنس للمسيحيين خاصة وتؤثرهم على المجوس ويرونهم أسلم صدورا من اليهود . ويقول إنهم كانوا ينهضون بحرف جليلة مثل العطارة والصيّرفة للنقود ، ويقول منهم أطباء الخلفاء والوزراء وعلية القوم وأطباء البيمارَستانات حتى استقر فى نفوس الناس أن الطبيب الحاذق لا يكون إلا مسيحيا . ونضيف إلى كلام الجاحظ أنه كان منهم أيضا كبار المترجمين للثقافة اليونانية وقد نال مترجموها من السريان أموالا ضخمة من الخلفاء . ويقول الجاحظ لا تجد اليهودى إلا صبّاغا أودبّاغا أو قصّابا (جزّارا) أو شعّابا (مصلح جرار أو أحذية) . ويقول المقدسى فى القرن الرابع الهجرى : منهم الخيّاطون والصبّاغون والأساكفة والخرازون . ويذكر بنيامين فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى أنه وجد فى بيت لحم اثنى عشر يهوديا يشتغلون بالصباغة ، ويقول بروكلمان فى كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية إن أوربا عرفت فى القرن العاشر الميلادى ازدهارا كبيرا فى تجارة الرقيق ، وكان يهود الأندلس هم القابضين على زمام هذه التجارة .

وكان القبط المسيحيون فى مصر يعيشون – غالبا – على الزراعة فى جنّاتها وكانت خيراتها وطيّباتها تملأ حجورهم بالأموال ، وتُرك لهم الإشراف المالى على شئون الخراج أو ضرائب الأرض والمزروعات ، وظل لهم ذلك وحدهم طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينيات من القرن الحاضر . مما يصور بوضوح اكتمال للمودة والتآلف بين المسلمين والقبط فى مصر طوال العصور الإسلامية .

وقد وصف الله مِصر بأنها (جنَّات وعيون وزروع ومقام كريم) وسماها العرب « فردوس الدنيا » . ومما يدل – بوضوح – على أن أهل مصر من القبط كانوا يعيشون فى رخاء مستمر متمتعين بالحكم العربى العادل وحسن المعاملة بينهم وبين المسلمين خبر رواه المقريزى فى أثناء زيارة المأمون العباسى لمصر سنة ٢١٧ للهجرة إذ مرَّ بقرية فى الدلتا تسمى « طاء النمل » وكان بها ضَيْعة كبيرة لسيدة قبطية تسمى : « ماريَّة » فتعرضت له تسأله أن ينزل فى ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده فى رحلته إلى الفسطاط عاصمة مصر حينئذ ، وعجب لكثرة ما قدَّمت لهم من أطعمة . فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصرى . فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا فى كل طبق كيس مملوء ذهبا ، فشكرها ، وأمرها بردِّه ، فأبت إباء شديدا ، وتأمَّل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضَرْب عام واحد مما يدل على أنه ربحها من عام واحد ، فقال : هذا والله أعجب . وتوسلت إليه أن يقبلها فتمنَّع ، وقال لها : رُدِّى مالك بارك الله لك فيه . فأخذت قطعة من الأرض ، وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التى تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا الذهب شيىء كثير . فأخذه المأمون لبيت المال وأقطعها عدة ضياع . وكأنه رأى – وهو محق – أن لا يأخذ الذهب من السيدة القبطية دون مقابل .

وإنما ذكرت هذا الخبر بطوله لنرى ما كان فيه قبط مصر المسيحيون من ثراء مردُّه إلى خصب الأرض وإلى أن حكّام مصر المسلمين لم يكونوا يثقلون على أصحاب الأرض الأقباط بالضرائب الباهظة وإلى أنه كان يسود الحكم عدل عظيم شهدت به السيدة مارية القبطية للمأمون . ولم يأخذ الذهب على أنه هدية له بل ردّه إلى بيت مال الدولة . وكانت الحياة بين القبط والمسلمين حياة أمن وتعاون وسلام دائم طوال العصور الإسلامية ، ولم يحدث بينهما ما يعكر صفو حياتهما ، وإن حدث بين بعض أفرادهما شقاق يوما عاد الوئام سريعا شاعرين بأنهم أفراد أسرة وطنية واحدة فى أرض مصر الطيبة المباركة .

ومما يتضح فيه ذهاب المسلمين وحكامهم فى التعايش المادى مع أهل الذمة إلى أقصى غاية أن نجدهم يفتحون لهم الأبواب فى تدبير أموالهم أو تدبير بعض شئون الدولة فى الدواوين أو اتخاذهم مستشارين فى أعمالهم . واشتهر معاوية مؤسس الدولة الأموية بأنه اتخذ سرجون النصرانى مستشاره المالى ، وكان يوحنا الدمشقي يلى الشئون المالية لابنه يزيد ولغير خليفة أموى . ولا نصل إلى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى حتى نجدهم يتكاثرون فى أعمال الدواوين ببغداد وشكا المسلمون من تسلطهم على أموالهم إلى الخليفة العباسى المتوكل فأمر سنة ٢٣٥ للهجرة - كما فى كتاب الولاة للكندى - بأن لا يستعان بأهل الذمة فى الدواوين وأعمال السلطان التى تجرى أحكامهم فيها على المسلمين . ويبدو أن هذا الأمر سرعان ما أخذ يخفّف فى عهده إذ نجده هو نفسه يجعل النفقة فى سنة ٢٤٥ على بناء قصره الجعفرىّ بيد دُليل بن يعقوب النصرانى . وعاد استخدام أهل الذمة بعده فى الدواوين ، واتخذ محمد بن عبد الله بن طاهر محافظ بغداد قَهْرَمانًا نصرانيا أمينًا له ووكيلا خاصًّا بتدبير دَخْله وخَرْجه من الأموال .

ويغلب عدد الكتاب من أهل الذمة فى الدواوين على كتَّاب المسلمين لأواخر القرن الثالث الهجرى فيأمر الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) فى السنة الثانية لخلافته بما أمر به المتوكل قبله من إبعادهم عن الخدمة فى الدواوين . كما يأمر بأن لا يستخدم أحد من اليهود والنصارى إلا فى الطب والصيرفة فى النقود . وسرعان ما خُفِّف هذا الأمر إذ نجد وزيره ابن الفرات يتخذ أربعة من الكتاب النصارى فى دواوينه ، وكان يدعوهم كل يوم إلى الطعام معه . ولما عزم المقتدر فى سنة ٣١٩ هـ/ ٩٣١ م على أن يستوزر الحسين بن القاسم أمره أن يصلح ما بينه وبين أعدائه من ذوى البيوتات وقواد الجيش فكان يستعين عليهم بكتابهم النصارى ويقول : لأحدهم -

وهو أصطفن بن يعقوب : إن تقلَّدت الوزارة فأنت قلَّدتنيها ، وأصبح أصطفن بعد ذلك صاحب بيت مال الخاصة فى الدواوين . واتسعت الدولة البويهية فى بغداد وإيران فى استخدام أهل الذمة فى الكتابة بالدواوين وأعمال الدولة ، وكان لعماد الدولة البويهى كاتب نصرانى يلى شئون الدولة ، واستخلف عز الدولة البويهى على بغداد والخليفة حين خرج عنها إلى البصرة صاعد بن ثابت النصرانى ، واتخذ بعده ابن عمه عضد الدولة كبير الحكام البويهيين فى بغداد وإيران وزيرا نصرانيا هو نصر بن هرون ، ويقول مسكويه فى تاريخه إنه عنى بعمارة الأديرة والكنائس ، واستأذن عضد الدولة فى إطلاق المال للفقراء من النصارى ، فأذن له .

وكل ذلك شاهد واضح على أنه لم يغلق أمام أهل الذمة باب من أبواب الأعمال المعيشية لا فى الزراعة والتجارة والصناعة فحسب ، بل أيضا فى دواوين الدولة وشئون الخراج والمال ، وكانوا يأخذون من الدولة رواتب تكفل لهم ولأسرهم معيشة طيبة . وكان كبارهم – وخاصة الوزراء – يأخذون رواتب كبيرة تتيح لهم حياة مترفة . ولم يكن الكتاب من النصارى وحدهم الذين يعملون فى دواوين الدولة ، فقد كان يشاركهم فيها بعض أهل الذمة من الصابئة وغيرهم ، وتولى ديوان الرسائل فى بغداد أبا إسحق الصابىء من منتصف القرن الرابع الهجرى إلى وفاته سنة ٣٨٤ للهجرة .

أما فى مصر فقد اتخذ خمارويه (٢٧٠ – ٢٨٢ هـ) وزيرًا قبطيا تولَّى شئون الدولة الإدارية والمالية ، وظل الأقباط – كما أسلفنا – منذ الفتح الإسلامى إلى العقد الرابع من القرن الحاضر – وحدهم – المسيطرين على شئون الخراج وضرائب الأرض فى مصر ، مما يدل – بوضوح – على حسن التوادّ والتعايش المادى بين الأقباط والمسلمين فى مصر طوال العصور الإسلامية . وأكثرت الدولة الفاطمية من استخدام أهل الذمة ، وعظم نفوذ اليهود فى عهد خليفتهم

الأول بمصر : المعز إذ اتخذ يعقوب بن كلِّس الذى كان يهوديا فأسلم وزيرا له يصرِّف أمور الدولة ، وصار يتحيَّز إلى إخوانه اليهود فى دينه السابق ، وكان لا يَنفُذُ شيء فى بلاط المعز الفاطمى إلا بمعونته ومعونة اليهود . وولى ابنه العزيز بعده وتزوج سيدة من القبط ، فعظم شأنهم فى بلاطه وخاصة حين ولَّى منهم عيسى بن نسطورس وزيرا له ، وولَّى نائبا عنه فى دمشق منشا اليهودى ، فعظم شأن اليهود هناك ، وظلا فى عملهما ثلاث سنوات . وخلفه ابنه الحاكم الفاطمى ، وكان فى الفترة الأولى من حكمه يتخذ أطباءه وكتابه إلا نفرا قليلا من النصارى واستوزر منصور بن سعدون النصرانى . وولى الوزارة للمستنصر الفاطمى لمدة ثلاث سنوات صدقة بن يوسف الفلاحى ، وكان يهوديا فأسلم ، وكان يدبِّر الدولة معه أبو سعد التسترى اليهودى .

وعلى هذا النحو لم يكن فى الديار الإسلامية عمل يتعيش منه المسلمون تعيشا ماديًّا إلا أشركوا معهم – حسب تعاليم الإسلام – أهل الذمة . وأشركوهم معهم فى الأعمال الحكومية بالدواوين وغير الدواوين ورفعوهم إلى منصب الوزارة أعلى المناصب فى دولهم ، و كانت تُدِرّ على أصحابها أموالا طائلة ، فضلا عن إنفاق أموال المسلمين فى عمارة معابد ملتهم وعمارة الكنائس والأديرة وإطلاق الأموال فى عون فقرائهم على نحو ما كان يصنع نصرين هرون – كما مرَّ بنا – بتشجيع من عضد الدولة البويهى ، فهل حدث فى التاريخ لحكام غير حكام المسلمين رفق بمن يعايش رعاياهم من غير أهل ملتهم مثل هذا الرفق الرائع ؟ .

ومن تتمة هذا التعايش المادى الرفيق أن نجد المسلمين – كما يحتفلون بأعيادهم مثل عيد رأس السنة الهجرية ، ويوم عاشوراء ، وليلة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم وليلة أول رجب وليلة نصف شعبان وليلة غرة رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى – كانوا يحتفلون بأعياد المجوس الفُرْس ، ومنها عيد السَّذَق وهو

عيد للنار معبودتهم ، وكانوا يوقدونها طوال الليل ويتغنون حولها ويرقصون ، ومن أعيادهم عيد هرمزد إله الخير ، وأهم أعيادهم عيد النَّيْروز ، وهو عيد الربيع ، وكانوا يحتفلون به احتفالات صاخبة لأول الربيع حين تدخل الشمس بُرْج الحمل ، وكانت البلاد الإسلامية جميعا تحتفل معهم به . وكانت أعياد النصارى التى يشاركهم فيها المسلمون كثيرة ، فمنها عيد الميلاد ، وعيد الفصح ، وعيد الشعانين ، وكان عيدا قديما للأشجار وخاصة أشجار الزيتون ، وكانت الجوارى النصرانيات يحتفلن به فى قصر الخلافة العباسية إذ يقول أحمد بن صدقة المغنى إنه دخل على المأمون فى هذا العيد ، فرأى بين يديه عشرين وصيفة رومية أَدَرْن الزنَّار (حزاما) على أوساطهن وتزينَّ بالدِّيباج (ثياب حريرية) وعلَّقن فى أعناقهن صُلْبان الذهب ، وأمسكن فى أيديهنَّ بالخوص والزيتون ، وكُن يرقصن . وكان المسلمون فى مصر يحتفلون – ولا يزالون – مع أخوانهم القبط بأعيادهم ، منها عيد ميلاد المسيح وعيد الغِطاس فى الشتاء ، وعيد خميس العهد قبل عيد الفصح بثلاثة أيام ، وعيد الزيتونة ، وهو يوم أحد الشعانين ، وكانت الكنائس تتزينَّ فيه بأغصان الزيتون وخوص النخل . وبعض هذه الأعياد كانت تتحول إلى كرنفالات كبيرة يلهو فيها المسلمون والقبط ، ويقول المقريزى : « كان الناس بمصر يخرجون فى بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات » والخيال هو لعبة خيال الظل المضحكة التى تحولت مع الزمن إلى لعبة الأراجوز المعروفة ، ولعل التماثيل هى نفس أشباح الأراجوز ، أما السماجات فأشخاص يتراءون فى صور مضحكة صابغين وجوههم أصباغا مختلفة .

الجزية

وحرىّ بنا أن نتوقف قليلا لنتعرَّف بالجزية التى كانت تفرض على أهل الذمة فإن كثيرين يظنون أنها كانت ضريبة دينية ولا صلة لها بالدين ، إنما

كانت ضريبة دفاع لا تؤخذ إلا ممن يصلحون للتجنيد من أهل الذمة ، إذ لم يكونوا يشتركون فى جيش الدولة الإسلامى الذى يدافع عنهم وعن الوطن ، ولذلك كانت لا تؤخذ إلا من الذمّى الذى يستطيع القتال وحمل السلاح ، فهى لا تؤخذ من صبى ولا من امرأة ولا من راهب ولا من ذى عاهة ولا من شيخ ولا من فقير . وكانت مبلغا ماليا زهيدا لا يزيد غالبا عن دينار واحد فى السنة ، يؤدّى دون أى قسوة كما أمرت بذلك الشريعة الإسلامية فلا يعذّب أحد فى أدائها ولا يكلف بما لا يطيق ، ويمكن تقسيمها . واكتفى حاكم مصر فى أول القرن الثالث الهجرى بأخذ نصف دينار فقط من القبط . ويقول الرحالة بنيامين إن اليهود فى كل بلاد الإسلام يدفعون دينارا واحدا . وقد ظلت الجزية التى تؤخذ من أهل الذمة جميعا نصارى ويهودا وصابئة ومجوسا فى مختلف العصور والبلاد الإسلامية لا تتجاوز الدينار سنويا تخفيفا عنهم .

٤

التعايش الفكرى

اندفع العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام وتعاليمه فى أنحاء المعمورة ففتحوا أقطارا كثيرة فى العالم من أواسط الهند وأبواب الصين مرورا بأفغانستان وإيران والعراق والشام إلى مصر والبلدان المغربية ، وعبروا رقعة الماء الضيقة فى جبل طارق إلى الأندلس ، وركزوا أعلامهم على مشارف جبال البرينيه جنوبى فرنسا . وهى أوطان كثيرة ، وكان يعيش فيها – منذ القدم – شعوب متباينة فى الجنس واللغة والثقافة ، وقد دانت جميعا للعرب إذ وجدوهم لا يريدون تملك الأرض فى ديارهم وما تحمل من الخيرات والطيبات ، إنما يريدون تملك القلوب للدين الحنيف ، وأخذ كثير من هذه الشعوب يتعرّف عليه ، ودخلت

فيه جماهير غفيرة منهم لما رأوا فى عقيدته من بساطة ويسر وفى شريعته من إخاء ومساواة بين المسلمين عربا وغير عرب ، مع محو جميع الفروق الطبقية والاجتماعية بين الأفراد فى الأمة ، ومع تحرير الشعوب من كل عبودية ، ولا خصومة مطلقا بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة ، فإن الإسلام يفرض عليهم – كما مر آنفا – حسن المعاملة لهم وأن يحموهم ويحموا أموالهم ومعابدهم ، وقد فتحوا لهم أبواب جميع الأعمال حتى فى الدواوين الرسمية كما مرَّ بنا .

وبذلك استطاع الإسلام أن يحدث امتزاجا قويا بين المسلمين وغيرهم ، فإذا الكثرة الكثيرة من شعوب الأمم المفتوحة يعتنقون الإسلام ، وإذا من ظلوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بأخوة كريمة حتى لنراهم يسرعون بالاستجابة إلى رغبة إخوانهم المسلمين لا فى التعرف على المعارف التطبيقية المفيدة فى تخطيط المدن وعمارة المبانى واستغلال الأرض فحسب بل أيضا فى التعرُّف على المعارف النظرية البحتة . وكانت تنتشر فى البلاد المفتوحة الثقافة الهيلينية ، وهى مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة ، وكانت مبثوثة فى جنديسابور بإيران ، وفى الرُّها وحرَّان وقنَّسرين وأنطاكية والإسكندرية وفى بعض الأديرة بالعراق والشام ومصر . وبحكم ما بثه الإسلام فى العرب من شغف بالعلم والمعرفة أخذوا يتعرَّفون منذ استقرارهم فى البلاد التى نزلوا فيها عقب الفتوح على وجوه من هذه الثقافة ، وكان كثيرون من أهل الذمة حملة هذه الثقافة الهيلينية قد تعربوا فانتقلوا بثقافتهم إلى المحيط العربى وأخذوا عن العرب ثقافتهم الأدبية ، كما أخذ العرب عنهم ثقافتهم الهيلينية ، وبذلك بدأ التعايش الفكرى بين أهل الذمة والمسلمين . ولم يلبث المسلمون فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى أن طلبوا من بعض أهل الذمة المتقنين للعربية أن يترجموا لهم كتبا تحمل بعض العلوم الأجنبية ، على نحو ما صنعوا لخالد بن يزيد ابن معاوية المتوفى سنة ٨٥ للهجرة ، إذ يقول الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » : « هو أول مَنْ ترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء » ويقول ابن خلكان : « له كلام فى صناعة الكيمياء والطب » وكان بصيرا بهذين

العلمين متقنا لهما ، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته . وأخذ الصناعة (أي الكيمياء) عن رجل من الرهبان يسمى مريانوس وكان راهبا روميا ، ولخالد فيها ثلاث رسائل . وخالد ومريانوس رمزان قويان للتعايش الفكرى بين المسلمين وأهل الذمة . وهذا التعايش أخذ يتحول سريعا إلى استجابة بعض أهل الذمة - كما رأينا - لطلب خالد ترجمة بعض ما عندهم من كتب الفلك والكيمياء والطب ، وليس ذلك فحسب ، فإن مريانوس علّم خالدا هذه العلوم ، وقد ذكر ذلك خالد فى إحدى رسائله .

ومنذ هذا التاريخ عُنى المستعربون من أهل الذمة بنقل بعض كتب العلوم والمعارف فى لغاتهم إلى العربية استجابة للعرب ، من ذلك ترجمة ماسرجويه كتابا فى الطب لعهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١) وترجمة بعض رسائل أرسطو من اليونانية وبعض رسائل فى السياسة من الفارسية إذ نُقل منها كتاب فى تاريخ الساسانيين ، كل ذلك فى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) . ونمضى إلى العصر العباسى فيتسع هذا التعايش الفكرى بين العرب وأهل الذمة ، ويلمع بين المترجمين اسم ابن المقفع ويترجم عن الفارسية منطق أرسطو وكتاب كليلة ودمنه الهندى الأصل وكتبا تاريخية فارسية مختلفة . وكان السريان المسيحيون قد نقلوا عن اليونان علومهم وفلسفتهم ، فنشط مستعربوهم فى نقل كنوزهما إلى العربية ، ومما نقلوه فى عهد المنصور العباسى (١٣٦ - ١٥٨ هـ) كتاب المجسطى لبطليموس فى علم الفلك وكتب أرسطو فى المنطقيات وكتاب إقليدس فى الأشكال الهندسية وكتب أبقراط وجالينوس فى الطب . ونقل بعض مستعربة الفرس ما عندهم من علمى الفلك والتنجيم كما نقل بعض مستعربة الهند كتابا مشهورا عندهم فى علم الفلك سُمّى السند هند .

وينشط هذا التعايش الفكرى لأهل الذمة مع المسلمين فى عهد هرون الرشيد ووزرائه البرامكة ، إذ أنشأ لترجمة العلوم الأجنبية مؤسسة سماها دار الحكمة ،

وتعاون فيها معه كبار السريان المستعربين الذين يحسنون العربية ، واختار لرياستها يوحنا بن ماسويه ، وكان طبيبا نسطوريا ووضع بين يديه كتّابا يحذقون الترجمة ، وجلب لهم الكتب اليونانية الطبية من أنقرة وعمورية وبلاد الروم وكلّفهم بترجمتها ، ولابن ماسويه مؤلفات كثيرة فى الطب وتركيب الأدوية . ووراء هذه المؤسسة لعهد الرشيد مترجمون كثيرون مثل جبريل بن بختيشوع كبير أطبائه ، إذ ألف كتبا مختلفة فى الطب . ومعنى ذلك أن أهل الذمة كانوا يترجمون لإخوانهم العرب — ويؤلفون لهم — كتبا متعددة فى العلوم المختلفة . وعمل وزراء الرشيد : البرامكة على نقل العلوم إلى العربية من الرومية (اللاتينية) واليونانية والفارسية والهندية ، وقد طلب يحيى بن خالد البرمكى إلى بطريرك الإسكندرية أن ينقل إلى أهل بغداد كتابا مشهورا فى الزراعة عن الرومية (اللاتينية) ولعله كتاب (Magon) العالم الفينيقى الزراعى الكبير ، وهو كتاب عالمى فى الزراعة وغراسة الأشجار نقله الرومان إلى اللاتينية . وعُنى البرامكة — وأصلهم من الفرس — بنقل التراث الفارسى ، ونُقل إلى العربية فى أيامهم من الذخائر الفارسية أمثال بُزُرْجمهر وعهد أردشيرين بابك إلى ابنه سابور ، وكتاب جاويدان خِرَد فى صنوف الآداب ومكارم الأخلاق ، وكتاب هزار أفسانه ، وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة . وكما عُنى البرامكة بنقل التراث الفارسى إلى المثقفين من العرب عنوا بنقل التراث الهندى ، إذ يقول الجاحظ : « اجتلب يحيى بن خالد البرمكى أطباء الهند مثل مَنْكه وبازَيْكر ... وقد عملوا فى البيمارستان الكبير ببغداد ، وسرعان ما استعربوا ، وشاركوا هم وغيرهم من مستعربة الهند فى نقل التراث الهندى وخاصة فى الطب والعقاقير ، وشمل نقلهم قصة السندباد وكتبا كثيرة فى الخرافات والأسمار أولعت بها العامة .

وبلغت هذه الموجة الحادة للتعايش الفكرى بين أهل الذمة والمسلمين أقصى غاياتها فى عهد المأمون بن الرشيد ، إذ حوّل دار الحكمة لأهل بغداد إلى ما يشبه معهدا علميا كبيرا يختلفون إليه ، وألحق به مرصدا فلكيا مشهورا ، ولما هزم

إمبراطور بيزنطة فى بعض مواقعه كتب إليه يسأله إرسال بعثة تختار طائفة من كتب العلوم اليونانية القديمة المخزونة فى بلده ، فاستجاب إليه بعد امتناع ، فأرسل إليه بعثة حملت ما استطاعت من الكتب اليونانية إلى بغداد ، وأخذ المترجمون عن اليونانية – من أهل الذمة – يعنون بترجمتها . ولما هادن المأمون صاحب جزيرة قبرص أرسل إليه يطلب ما حُفظ عنده من الكتب اليونانية ، وكانت كتبا لفلاسفة اليونان فأرسلها إليه . وأكبَّ عشرات المترجمين ينقلون فى دار الحكمة أكثر هذه الكتب إلى العربية ، ومن أهمهم يحيى بن البطريق وكان يجيد اللاتينية واليونانية ، وترجم لمن حوله من العرب قصة طيماوس لأفلاطون وكتب أرسطو فى النفس والحيوان والآثار العلوية وكتاب الترياق فى الطب لجالينوس ، وتُرْجمت حينئذ كتب الموسيقى لإقليدس .

وممن أخذ نجمه يتألق فى التعايش الفكرى السليم بين السريان المسيحيين والمسلمين منذ عهد المأمون حنين بن إسحق . وكان دقيقا فى نقله إلى أبعد حد مما جعل المأمون يأمر بأن يأخذ دائما وزن ما يترجمه ذهبا . ولإعجاب الخليفة المتوكل بروعة ما ينقله إلى العربية من اليونانية أهداه ثلاث دور ، وحمل إلى كل دار ما تحتاج إليه من الأثاث والفرش والآلات والكتب وأنواع الستائر الأنيقة ، وأقطعه بعض الإقطاعات أو الضياع وجعل له راتبا شهريا خمسة عشر ألف درهم . وكان حنين مسيحيا نسطوريا رحل إلى بلاد الروم وتعلَّم اليونانية وأتقنها ، وكان يتقن السريانية والعربية والفارسية ، وجعل الخليفة المتوكل له كتَّابا حاذقين بالترجمة يترجمون بين يديه وهو يتصفح ما يترجمونه ، وكان يشغف بترجمة الكتب الطبية اليونانية وترجم منها لجالينوس عشرات . وهو بتلاميذه يؤلف مدرسة كبرى فى النقل من اليونانية ، ومن أهمهم ابنه إسحق وابن أخته حبيش ، وكان إسحق يعنى بترجمة الكتب الفلسفية وترجم كثيرا لأرسطو ، وكان حبيش – مثل خاله – يعنى بترجمة الكتب الطبية ، ومن زملائهما فى التلمذة لحنين أصطفن ، وهو أول من نقل للمسلمين كتاب ديوسقوريدس فى النبات وكتاب أوريباسيوس فى الأدوية المفردة . وبجانب

هذه المدرسة الكبيرة لنقل الفكر اليونانى كان هناك مترجمون يفوتون الحصر ، منهم ثابت بن قرة مترجم كتاب الأصول لإقليدس ، وقسطا بن لوقا البعلبكى ، وكان يعنى بنقل كتب فلاسفة اليونان . وخاتمة النقلة العظام من اليونانية إلى العربية متىً بن يونس ، وهو من أصل يونانى ، واشتهر بنقله إلى العربية جميع آثار أرسطو فى المنطق وغير المنطق .

وهذا التعايش الفكرى من قِبَل أهل الذمة سريانا وغير سريان لم يقدموا فيه لإخوانهم المسلمين إخاءهم ومودتهم فحسب ، بل قدموا لهم كل ما يملكون من كنوز العلوم وذخائر الفلسفة اليونانية بمنتهى الصدق والإخلاص لا يكتمون منه شيئا ولا يخفونه ، ولا يحاولون أىَّ محاولة لتضليلهم فيه أو فى بعضه بأى صورة من الصور ، وكأنما رأوا فى ذلك تحبُّبا إلى إخوانهم المسلمين ، فأدَّوه بكل ما استطاعوا من الدقة تارة نقلا وتعريبا ، وتارة تعريفا وتعليما ، وظلوا على ذلك ثلاثة قرون أو تزيد يدعمون هذا العمل من الترجمة والتعليم للمسلمين موثقين التآلف معهم بل التعايش الفكرى السديد . وكان الأولون من أهل الذمة سريانا وغير سريان نقلوا بعض كتب مهمة نقلا حرفيا به أحيانا شىء من الغموض فى المعانى أو عثرات أسلوبية أو صعوبات فى الأداء فرأى بعض المترجمين – وخاصة من السريان – منذ عهد البرامكة والمأمون أن يعيدوا ترجمة هذه الكتب المهمة ، حتى يستوعبها المسلمون ويتمثلوها تمثلا دقيقا ، تمكينا لتآلفهم معهم واستجلابًا لمودتهم .

وقد أكبَّ المسلمون على كل ما ترجمه ونقله لهم أهل الذمة من تراث أممهم العلمى يستوعبونه وكانوا – فى كثير من الأحيان – يتدارسون معهم ما ينقلونه لهم من العلوم على نحو ما صنع خالد بن يزيد بن معاوية المار ذكره ، فقد ترجم له مَرْيانوس كتابا فى الكيمياء وعلَّمها له كما أسلفنا . ومضى المترجمون منذ هذا العهد المبكر فى القرن الأول الهجرى ينقلون تراثهم العلمى ، ويعلمون

علومه لمن يريد ذلك من إخوانهم المسلمين . كما يعلمونهم ما به من تفلسف وفلسفة . وكانت مجالسهم دائما مليئة بطلاب العلوم والفلسفة يتلقون عنهم ما يعرضونه عليهم من التراث العلمى والفلسفى . ومن المجالس التى اشتهرت فى القرن الثانى مجلس يوحنا بن ماسويه رئيس دار الحكمة فى زمن الرشيد ، فقد « كان أعمر مجلس بمدينة بغداد لمتطبب أو متكلم أو متفلسف ، وكان تلاميذه يقرءون عليه فى مجلسه كتب المنطق لأرسطو وكتب جالينوس فى الطب » . وعلى شاكلة مجلسه كانت مجالس كبار المترجمين فى القرنين الثالث والرابع للهجرة من أمثال حنين بن إسحق ومتى بن يونس .

وبفضل ما وضع أهل الذمة تحت أعين المسلمين من الثقافات المترجمة : الفارسية والهندية والسريانية وبخاصة الثقافة اليونانية وما تحمل من العلوم ، وأيضا بفضل تعليمهم تلك الثقافات ومدارستها لهم أخذوا يتمثلون كل ذلك تمثلا منقطع النظير ، وسرعان ما أخذ يتكوّن لهم علماء عالميون فى كل علم مثل جابر بن حيان الكيميائى فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، وله فى الكيمياء أكثر من مائة رسالة ترجم الغرب كثيرا منها إلى اللاتينية . وما نلبث أن نلتقى – فى عهد المأمون – بالخوارزمى مكتشف علم الجبر ومفتتح سلسلة الرياضيين العالميين . ومنذ القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى إلى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى يقيم المسلمون نهضة علمية ضخمة ظلت تقود العالم وحدها طوال ستة قرون ، تتلمذ الغرب فيها لأساتذتها وخاصة فى صقلية والأندلس . وبفضل ما ترجم السريان وعلّموا المسلمين من الفلسفة اليونانية نفذ المسلمون إلى إيجاد فلسفة إسلامية لهم ، منذ عهد المأمون وظهور الكندى أول فلاسفتهم ، وله كتب ورسائل تُعَدّ بالعشرات بل بالمئات ، وتتناول العلوم الرياضية والفلكية والهندسية والطبيعية والأخلاق والسياسة والمنطق والكلام والجدل والطب ، وكان يشيد بالعقل ويقول إن النفس من نور الله ، وهى تتصل

بالجسد ، ولكنها تظل فى جوهرها مستقلة عنه ، حتى إذا فارقته التذت لذة كبرى . وتلاه فى القرن الرابع الفارابى ، وهو يمزج بين روحانية الإسلام ونظريات الفلسفة اليونانية ، واشتهر بعده فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ابن سينا أكبر فلاسفة الإسلام وعنده تمتزج الفلسفة اليونانية بالحكمة المشرقية والروح الإسلامية . وجاء بعده فلاسفة الأندلس وأهمهم ابن رشد ، وله محاولات رائعة فى التوفيق بين الفلسفة والدين الحنيف .

ومن ظواهر هذا التعايش الفكرى الخصب قيام حركة واسعة من المناظرات والجدل بين المسلمين وأهل الذمة من أصحاب النحل المختلفة فى عقائدهم والعقيدة الإسلامية مما يوضح كيف أن أهل الذمة فى العالم الإسلامى لم يكونوا يعيشون بحرية تامة فى أداء الشعائر التى فرضتها عليهم عقائدهم فحسب ، بل كانوا أيضا يعيشون نفس هذه المعيشة فى الدفاع عنها فى مناظراتهم العقيدية للمسلمين . وكانت هذه المناظرات فى عصر بنى أمية تحتدم فى الشام بين المسلمين وبعض رهبان الكنائس . ومن أهم النصارى الذين كانوا يشاركون فى هذه المناظرات بالشام يوحنا الدمشقى الذى كان يكتب اليونانية ، ومر بنا أنه ولى إدارة الشئون المالية فى دمشق لغير خليفة ، وله مؤلفات متعددة ، منها محاورة مع مسلم فى ألوهية المسيح ، ومنها كتاب لإرشاد النصارى فى جدالهم مع المسلمين ، سوى مجادلاته مع المسلمين فى مسألة القدر وحرية الإرادة للإنسان ، وكان بعضها يدور أحيانا فى مجالس بعض الخلفاء الأمويين .

وهو وجه مشرق من وجوه عالمية الإسلام فى إبَّان عصوره ، فإن الخلفاء الأمويين لم يفتحوا فقط الأبواب لأهل الذمة كى يتعايشوا فى حرية تعايشا ماديا مع المسلمين ، بل سلموا أيضا لبعضهم تصريف الشئون المالية للدولة ، وقد تعايشوا فكريًّا بحرية مع المسلمين فى مناقشة العقيدة والقدر . ونمضى إلى العصر

العباسى فيحتدم التعايش الفكرى بين المسلمين وأهل الذمة من مختلف الملل فى الترجمة وتعليم العلوم مما ألممنا به آنفا ، وتحتدم المناظرات ويحتدم معها الجدل فى شئون العقيدة بين علماء الكلام المسلمين وبين أصحاب الديانات إلهية ووثنية غير إلهية . وبين أيدينا أخبار مختلفة عن اشتداد هذا الجدل فى العراق بالقرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى إذ يقول صاحب كتاب الأغانى فى الجزء الثالث منه : كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام (أى المتكلمين فى العقائد والقدر) هم عمرو بن عُبَيد وواصل بن عطاء (وهما من المعتزلة) وبشار الأعمى (وهو ماجن زنديق) وصالح بن عبد القدوس (المانوى المؤمن بإلهى النور والظلمة) وعبد الكريم بن أبى العوجاء (زنديق) ورجل من الأزد . وكان الستة يجتمعون فى مجلس الأزدى ويختصمون عنده . وعبثا كان يحاول رأس المعتزلة وزعيمهم واصل بن عطاء وصديقه الذى يدين بمذهبه فى الاعتزال عمرو بن عبيد المشهوران بقدرتهما الرائعة فى جدل أصحاب الديانات أن يقنعوا بشارا وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى العوجاء بالخطأ فى تصوراتهم ومداركهم الدينية . وأهم من هذا النص نص فى الجزء الثانى من كتاب النجوم الزاهرة بنفس البلدة جاء فيه : « كان يجتمع بالبصرة عشرة فى مجلس لا يُعْرَفُ مثلهم : الخليل بن أحمد صاحب العروض سُنِّىٌّ ، والسيد بن محمد الحميرى الشاعر رافضى ، وصالح بن عبد القدوس ثَنَوِىّ ، وسُفيان بن مجاشع صُفْرِىّ ، وبشّار بن بُرْد خليع ماجن ، وحماد عَجْرَد زنديق ، وابن رأس الجالوت الشاعر يهودى ، وابن نظير النصرانى متكلم ، وعمرو ابن أخت المويذ مجوسى ، وابن سنان الحرّانى الشاعر صابئى » . والنص يشمل جميع أصحاب العقائد والنحل بالعراق ، فالخليل بن أحمد واضع العروض وأوزانه مسلم سنى يقول بخلافة أبى بكر وعمر عن استحقاق ، والسيد بن محمد الحميرى رافضى أى شيعى متطرف يطعن فى أبى بكر وعمر والصحابة ، وصالح بن عبد القدوس ثنوى أى مانوى يقول بأن للعالم إلهين : إله النور وإله الظلمة ، وسفيان بن مجاشع من الخوارج الصُّفْرِيّة الذين كانوا يؤثرون القعود عن جهاد

الأمويين في أول أمرهم ، ثم حملوا السلاح لحربهم ، وبشار بن برد خليع ماجن ، وفات صاحب النجوم الزاهرة أنه زنديق ، وحماد عَجْرد زنديق ، وابن رأس الجالوت كبير أحبار اليهود ورئيسهم في العراق ، وابن نظير نصراني ، وعمرو ابن أخت الموبذ مجوسي ، وابن سنان الحرَّاني الشاعر صابئي . وواضح أن كل شخص من هؤلاء الأشخاص العشرة كان يمثل عقيدة من العقائد في العصر العباسي الأول ومنهم ثلاثة مسلمون : سني ، وشيعي رافضي ، وصفري من الخوارج ، ومنهم زنديقان ، ثم خمسة : مانوي ، ويهودي ، ونصراني ، ومجوسي ، وصابئي . وكانوا يتجادلون ويتحاورون في عقائدهم ويتناشد الشعراء منهم أشعارهم . ولا يمكن أن يجتمع هذا المجلس في أمة من الأمم ، إنما يجتمع في الأمة الإسلامية في أوج عزها وسلطان دولتها في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ، لعالمية دينها ولما كفل لأهل الذمة من حرية في العقيدة .

وظل علماء الكلام المسلمون بالعراق في العصر العباسي وبعده يفتحون مجالسهم لأهل النحل المختلفة للحوار معهم والجدال في العقائد ، يدل على ذلك ما رواه أندلسي في كتاب جذوة المقتبس يسمى أحمد بن محمد بن سعدي ، كان من الفقهاء المحدِّثين نزل بغداد في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وقال إنه عاد منها إلى القيروان في تونس ، فسأله فقيهها المالكي ابن أبي زيد المتوفىَّ سنة ٣٨٦ للهجرة : هل حضرت مجالس أهل الكلام ؟ فقال : حضرت مجلسين ، وأول مجلس حضرته جمَع الفرق كلها : المسلمين من أهل السنة والبدعة ، والكفار من المجوس والدَّهرية (الذين لا يؤمنون بالبعث) والزنادقة ، واليهود ، والنصارى ، ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه ويجادل عنه . وإذا جاء رئيس لأي فرقة قامت الجماعة إليه قياما على أقدامهم ، حتى يجلس فيجلسوا بجلوسه ، فإذا غَصَّ (ازدحم) المجلس بأهله ، ورأوا أنه لم يبق لهم أحد ينتظرونه قال قائل من الكفار : قد اجتمعتم

للمناظرة ، وإنما نتناظر بحجج العقل وبما يحمله النظر والقياس فيقولون نعم لك ذلك . ويقول ابن سعدى قيل لى : هناك مجلس آخر للكلام ، فذهبت إليه . فوجدتهم مثل سيرة أصحابهم السالفين . وواضح من حديث الفقيه الأندلسى أن مجالس المتكلمين فى العصر العباسى ظلت تفتح أبوابها للمناظرات والجدال والحوار لمتكلمين من الفرق الإسلامية من أهل السنة والبدعة ، وللمجوس عبدة النار ، وللمانوية الذين يؤمنون بإلهى النور والظلمة ، وللصابئة عبدة الكواكب ، وللزنادقة الملحدين وللدهرية الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ولليهود ، وللنصارى . وكل تلك المناظرات والمحاورات والمجادلات التى تصور تعايشا فكريا إلى أبعد الحدود إنما تمَّت وازدهرت بفضل عالمية الإسلام الذى وَسِعَ فى دياره كل الملل والنحل إلهية وغير إلهية متعاملا معها على قدم المساواة .

٥

عقلانية الإسلام

كان الرسل – قبل الإسلام – يرسلون إلى أقوامهم داعين – مثل محمد صلى الله عليه وسلم – إلى عبادة الله وحده ، وكان يعارضهم كثيرون من أقوامهم ؛ فكان الله يؤيدهم بمعجزات وخوارق حسية ، لعلها تفحمهم وتدفعهم إلى الاستجابة لرسلهم ، غير أنهم كانوا يظلون فى عنادهم وجحودهم . ويذكر الله فى سورة الإسراء أنه أرسل موسى إلى فرعون وبنى إسرائيل بتسع آيات ومعجزات واضحات الدلالة ، وقد فصَّلها فى سورة الأعراف فى الآيات ذوات الأرقام ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ وهى انقلاب عصاه ثعبانا مبينا يلقف كل ما يأفكه سحرة مصر مما سحروا به أعين الناس ، وإخراج يده من جيب ثوبه ﴿فإذا هى بيضاء للناظرين﴾ مما جعل الناس تنبهر انبهارا شديدا ، وإصابة آل فرعون بالسِّنين أى بالجدْب وبنقص الثمرات أى قلة الإنتاج

والمحصول ، ثم يذكر الله خمس معجزات أيّد بها موسى قائلا : ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّلَ والضفادع والدم﴾ والطوفان : فيض شديد للنيل أهلك الحرث والزرع ، والجراد : حشرة تأكل ورق الشجر والنباتات والسنابل ، والقُمَّل : ضرب من القراد يمتص دماء الدواب ، وهو غير القَمْل ، والضفادع التي تسكن مناقع المياه ، والدم إذ كان موسى يأخذ من نهر النيل ماء ويسكبه أمام فرعون فيستحيل دما . والمعجزة التاسعة إرسال الله عليهم الرِّجْز ، وهو وباء . ولجئوا إلى موسى قائلين له إن كشفت عنا هذا الرجز أو الوباء نؤمن بك ونرسل معك قومك بني إسرائيل إلى المكان الذى تريده ، ودعا موسى الله لهم فكشف عنهم الرجز أو الوباء ، ونكثوا عهدهم ولم يفوا بما وعدوه من السماح لبنى إسرائيل بالخروج من مصر معه ، مما اضطر موسى إلى الخروج مع قومه ليلا سرا . وعلم فرعون بخروجهم ، فحاول أن يلحقهم بجنوده وجدَّ فى أثرهم . وكان موسى قد بلغ مع قومه شمالى بحر القلزم أو البحر الأحمر ، ففلقه الله له لينجو بقومه ، وتبعهم فرعون وجنوده وأطبق الله عليهم البحر فغرقوا جميعا لتكذيبهم معجزات الله لموسى ، وجحودهم ما جاءهم به من توحيد الله وانفراده بالألوهية .

وأرسل الله صالحا إلى قومه ثمود فى مدينة الحجر المسماة الآن مدائن صالح شمالى الحجاز ، وذكر قصته مع قومه مفصَّلة فى سور الأعراف وهود والشعراء والنمل وكيف أنه كان كلما دعاهم إلى عبادة الله وتقواه ازدادوا نفورا وجحودا واستكبارا إلا قليلا منهم آمنوا به . وعبثا كان رسولهم صالح يلفتهم إلى آلاء الله ونعمه عليهم وكيف أحال لهم الأرض جنات وعيونا وزروعا ومكَّنهم من الجبال ينحتون لهم فيها بيوتا مما يوجب عليهم شكره والإيمان به ، وظلوا يحادّونه ويطالبونه بمعجزة تثبت صدقه . وسألوه ملحين أن يخرج لهم من صخرة عندهم ناقة يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم ، فأخذ عليهم رسولهم صالح عهدا موثقا إن أجابه الله إلى ماسألوه أن يؤمنوا

به ، ودعا صالح ربه ، فانشقت الصخرة عن ناقة ، وقال لهم صالح : هذه ناقة الله تأكل فى أرضه ، ولها نصيب معين من الماء ، ولكم نصيب آخر منه . وهم يزدادون إصرارا على كفرهم ، وهو يحذرهم أن يمسوها بسوء . وفكر نفر منهم فى قتله ، وأغووا شخصا منهم – اسمه قدار – بذبحها فذبحها . وفى بعض الآيات ينسب الله ذبحها إليهم جميعا ، لأنه ذبحها برضاهم وإغوائهم له . وتوعدهم صالح بأن عذاب الله سينزل بهم بعد ثلاثة أيام من جريمتهم الكبرى . ودمرهم الله برجفة أهلكتهم جميعا ماعدا صالحا والمؤمنين به .

وحياة عيسى الرسول إلى بنى إسرائيل سلسلتان من المعجزات الخارقة فقد حملت به مريم العذراء بدون أب : معجزة كبرى ، وكلامه فى المهد معجزة ثانية كبرى . وإن صحَّت الرواية بجعله الماء خمرا فى عُرْس « قانا الجليل » يكون ذلك معجزة له ، وفى آية سورة آل عمران رقم ٤٩ خمس معجزات له أولاها أنه إذا صوَّر شيئا من الطين على هيئة طير ونفخ فيه صار طيرا حقيقيا حيًّا يطير ﴿بإذن الله﴾ وتكررت هذه الكلمة مع معجزاته لئلا يتوهَّم أنه شريك لربه فى خلق الكائنات ، ويُعْلم أنه يأتى ما يأتى من المعجزات لا بقدرته ، وإنما بإذن الله وقدرته وإرادته . والمعجزة الثانية أنه يشفى الأكمه الذى يولد أعمى فيصبح بصيرا يرى الناس والدنيا من حوله بإذن الله وقدرته . والمعجزة الثالثة أنه يشفى الأبرص الذى يشيع فى جلده بياض مشوب بحمرة ، فإذا هو يتخلص من هذا المرض الذى يعجز الأطباء حتى اليوم عن شفاء المريض به ، وقد شفاه بإذن الله وقدرته . والمعجزة الرابعة معجزة كبرى إذ يحيى الموتى بإذن الله أى بدعاء ربه وإرادته . والمعجزة الخامسة أنه كان يُنْبِىءُ الشخص من بنى إسرائيل بما أكله فى بيته وما ادَّخره لوقت حاجته إليه .

وهذه المعجزات التى أجراها الله على يد عيسى ليصدقه بنو إسرائيل لم تُجْدِ نفعا معهم بل زادتهم جحودا وعنادا وإصرارا على رفض دعوته كما رفضت ثمود

دعوة صالح مع ما جاءهم به من معجزة الناقة التى كانوا يشاهدونها بأبصارهم . وكما رفض فرعون وقومه دعوة موسى مع ما جاءهم به من معجزاته التسع ، فقد زعموا أنها من السحر وفنونه وأن موسى وأخاه هرون ساحران . وكل هذه الرسالات لعيسى وصالح وموسى كانت تستند بوضوح إلى المعجزات المادية ومنطق الحس . وطالب الرسولَ رءوسُ الكفر فى قريش بمعجزات مماثلة كما جاء فى سورة الإسراء فى الآيات رقم ٩٠ إلى ٩٣ إذ قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : لن نؤمن بك حتى تشقّ لنا من الأرض ينبوعا مثل زمزم ، أو يكون لك فى أرضنا بستان من نخيل وعنب تجرى فيه المياه ، أو تسقط السماء علينا قطعا من العذاب ، أو تأتينا بالله والملائكة مجموعين ، أو تصعد فى السماء وتنزّل علينا كتابا نقرؤه .

ويكرر الله فى القرآن أنه لو أيّد رسوله بمثل هذه المعجزات – كما يريد قومه – لكذبوه كما كذّب الرسلَ السابقين أقوامُهم ، وقالوا إنها سحر أو ما يشبه السحر ، يقول جَلّ شأنه فى سورة الأنعام : ﴿ولو نزّلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ . ويقول أيضا فى نفس السورة لرسوله : ﴿ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحَشَرْنا عليهم كل شىء قُبُلا[1] ما كانوا ليؤمنوا﴾ . لذلك اختار الله لخاتم رسله : محمد أن لا يكون الإقناع فى رسالته قائما على المعجزات المادية ومنطق الحِسّ ، وأن يكون للعقل ومنطقه النصيب الأوفر فى دعوته ورسالته .

ودعا الله فى القرآن البشر إلى الاحتكام إلى العقل عشرات المرات وفيها يجعله حكما فى الإيمان به وبوحدانيته ، إذ يطلب إلى الناس أن يكون إيمانهم به لا عن تسليم بغير عقل ، بل عن عقل ونظر سديد فى الكون نظرا يهديهم إلى الايمان بوجود الله ووحدانيته . والقرآن يكرر ذلك عشرات المرات – إن لم يكن مئاتها –

(١) قبلا : مواجهة ومعاينة .

فى سوره المختلفة ، ونسوق من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿وإلهكم إلهٌ واحد لا إله هو الرحمنُ الرحيمُ * إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليلِ والنهار والفُلْكِ التى تجرى فى البحر بما ينفعُ الناسَ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعدِ موتها وبثَّ فيها من كل دابَّة وتصريفِ الرياح والسحابِ المسخَّرِ بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يَعْقلون﴾ .

والله يقرر فى الآية الأولى ألوهيته ووحدانيته ، ويقيم على ذلك دلائل كونية من خلق السموات والأرض وما أودع فيهما من مخلوقات . والسموات إذا ذكرت مفردة كما سيأتى فى الآية كان المراد بها الجوّ المرتفع فوقنا . وإذا ذكرت مجموعة كما فى أول الآية كان المراد بها أجرامها العظيمة . وفى رأى كثير من المفسرين أنها السيارات السبع : الزهرة والمريخ وأخواتهما ، وكأنها السموات السبع الثوابت المكررة فى القرآن ، والله يدعو إلى التدبر فى خلقه للسموات وما بها من الكواكب التى لا يعتريها فى جريها أى خلل . وبالمثل يدعو إلى التأمل فى الأرضِ ومابها من كائنات شتى . فإن فى المجموعتين الأرضية والسماوية ما يدلُّ عقلا على خالق عظيم لها هو الله ، وبالمثل اختلاف الليل والنهار بين ظلمة ليلا للسكون والراحة وضياءٍ نهارا للعمل وكسب المعاش ، ولو دامت الظلمة أو الضياء لاختلَّ نظام الأرض واختلت حياة البشرية .

ويوضح الله هذا البرهان العقلى الدال على وجوده ووحدانيته قائلا : ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سَرْمدًا﴾ أى دائما لا ينقطع ﴿إلى يوم القيامة مَنْ إلهٌ غيرُ الله يأتيكم بضياءٍ أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾. ويدعو الله إلى النظر عقليا فى ﴿الفُلْك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناسَ﴾ فإنها تشتمل على آيات مختلفة هى آية خلق البحر الذى تجرى فيه ، وآية إلهام الله للإنسان أن يصنع السفُن لتشق [illegible] وآية الرياح التى

سخرها الله للإنسان كى يدفع بها سفينته إلى حيث يشاء يمينا أو يسارا وجنوبا أو شمالا حاملة له عروض التجارة ، أو لمشاهدة البلاد والزيارة ، أو للغزو ، أو للحج إلى بيت الله . ويدعو الله إلى التأمل فيما يُنزل من السماء من ماء . ونسب الله إنزال الأمطار من السماء إلى الأرض إليه ، لأنه هو الموجد والمحكم لأسباب نزولها بتحويله ماء البحار بخارا يتراكم سحبا عذبة ، وتسقط مياه السحب على الأرض مكونة أنهارا وعيونا ، وتُسْقَى منها الأرض ، فتحيا ويعمّ فيها النبات بعد أن كانت مجدبة ، وتنمو فيها الزروع وتحمل محاصيلها وحبوبها كما قال الله تعالى فى سورة يٓس : ﴿وآيةٌ لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حَبًّا فمنه يأكلون﴾ .

ويذكر الله أنه بثّ فى الأرض من كل دابة تدبُّ على وجه الأرض على اختلاف أشكال الدواب وهيئاتها وألوانها مما تنتفعون به وتتمتعون بمشاهده ، ومما تأكلون وتركبون . ويقول الله تعالى فى سورة هود : ﴿وما من دابةٍ فى الأرض إلا على الله رزقُها ، ويعلم مستقرّها﴾ أى المكان الذى تأوى إليه وتسكن فيه ﴿ ومستودعها﴾ أى المكان الذى تدفن فيه . ويدعو الله إلى التأمل فى تصريفه للرياح بين هبوب وركود وبين نسيم وزوبعة وعاصفة وبين ريح حارة وريح باردة وبين ريح جافة وريح رطبة . كما يدعو إلى التأمل فى السحاب الذى يتكون من تصاعد بخار البحار ، ويجمع الله البخار ويراكمه فيصبح سحابا ، ويسخرّه متنقلا به من موضع إلى موضع ، مسقطا منه الماء الذى ينشىء النبات والزروع . منةٌ عظيمة لله على الناس . ويقول الله معقبا على كل ماسبق بأنها آيات ﴿لقوم يعقلون﴾ أى استدلالات واضحة على وحدانية الله المذكورة فى الآية قبلها . فهذا النظام البديع فى السموات والأرض وما يرافقه من سنن كونية فى اختلاف الليل والنهار ، ومن تسخير الله للبحار كى يُجرى الإنسان فيها السفن ، ومن تدبيره نزول الماء من السماء ليحيى الأرض وينشر فيها النباتات والزروع وقيامه على حياة كل دابة وكفالته لرزقها وعلمه بمأواها ، وتصريفه المتنوع للرياح

وتسخيره للسحاب . إن كل ذلك أدلة واضحة للعقل على أن للكون إلها يدبِّر سُنَنَه ونظامه . والله يدعو الناس إلى أن يستخدموا عقولهم فى تدبر ملكوت السموات والأرض ، ليؤمنوا عن بصيرة بأن للكون إلها صنعه وأحكم خلقه بسنن ربَّانية تمسكه إلى أبد الآبدين . ويقول – جَلَّ شأنه فى سورة يّس :

﴿وآيةٌ لهم الليلُ نسلخُ منه النهارَ فإذا هم مظلمون . والشمسُ تجرى لمستقرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم . والقمرَ قَدَّرْناهُ منازل حتىَّ عاد كالعُرْجون القديمِ . لا الشمسُ ينبغِي لها أنْ تدرك القمر ولا الليلُ سابقُ النهار وكلٌّ فى فَلكٍ يسبحون﴾ .

والله – فى هذه الآيات – يعرض على البشر دلائل عظمى من قدرته الكونية وما أودع فى الليل والنهار والشمس والقمر من نظام دقيق محكم . وبدأ بنظام الليل والنهار الذى يشاهده الإنسان صباح مساء ، فقال إنه يسلخ جِلْدَ النهار ونوره عن الليل فيعمُّ الظلام بزوال نور النهار عن الآفاق وإقبال الليل بظلمته . والليل والنهار يتعاقبان : الليل بظلامه والنهار بنوره . وإذا جاء أحدهما انصرف الآخر . نظام إلهى محكم . والشمس تسير سيرا سريعا ﴿لمستقَرٍّ لها﴾ مكانيا أو زمانيا . أى لمكان غروبها اليومى أو زمانه ، وقيل أى لمكان استقرارها فى بروجها الاثنى عشر الموزعة على مدار السنة ، وقيل لمستقرها فى يوم القيامة ، والرأى الأول أصح وأوضح . ويقول الله إن ذلك تقدير العزيز المسخِرَّ له كوكبُ الشمس ، العليم بنظامه الدقيق البديع . ويقول إنه قدْر للقمر نظاما محكما إذ جعل له منازل تبلغ عدتها ثمانية وعشرين موزعة على بروج الشمس الاثنى عشرِ . وهو والشمس يسيران سيرا منتظما كما قال تعالى : ﴿وسخَّر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ أى سائرين لا يفتران ولا يقفان . والقمر يطلع فى أول ليلة من الشهر ضئيلا ، ويزداد نورا فى الليلة التالية . وكلما ارتفع ازداد نورا حتى يتكامل نوره فى الليلة الرابعة عشرة ، ثم يأخذ فى التناقص إلى آخر الشهر حتى يصير ﴿كالعرجون القديم﴾ والعرجون عود فى أعلى النخلة تخرج منه

شماريخ تحمل البلح أو التمر . والقديم أى الذى انقطع منه البلح وقدم وتقوس واصفرّ وتضاءل ، وصار يشبه هلال القمر فى آخر الشهر . ويقول الله إن لكل من الشمس والقمر مداره فلا يصطدمان مع ما يبدو من قرب منازلهما ، فلا الشمس يمكن أن تدرك القمر وتلحقه فتطلع ليلا . ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ أى أنه لا توجد لهما فترة تتيح لأحدهما أن يسبق صاحبه ، بل هما يتعاقبان يعقب كل منهما صاحبه ﴿وكل فى فلكٍ يسبحون﴾ أى أن لكل من الشمس والقمر فلكا ومدارا خاصا ، وكل منهما يسير فى فلكه ومداره لا يعدوه .

وكل ما يشاهده الإنسان من مظاهر الليل والنهار ومسيرة الشمس والقمر له نظام دقيق إذا تأمله الإنسان وتدبره آمن بأن للكون إلها عظيما أحكم خلقه وقدر له نظامه . ويعرض الله دائما على عقل الإنسان آياته الكونية ، ليشهد شهادة عقلية بأن لهذه الآيات إلها خلقها ودبَّر لها نظامها . ودعا الله الناس مرارا كما فى آية البقرة إلى استخدام عقولهم فى تدبر آياته الكونية وتأملها ليؤمنوا به عن بينة وبصيرة ، وينعى على المشركين أنهم عطلوا عقولهم ، فلم يستخدموها فى فهم آيات الله الكونية والاهتداء بها إلى معرفة خالقها والإيمان به عن يقين ، وفيهم يقول : ﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ والقلوب : العقول ، والله يقول إن لهم عقولا ، ولكنهم عطلوها فلم تعد تدرك شيئا ينفعها أو تهتدى به لخيرها ، ولهم أعين ولكنهم عطلوها فلم تبصر خلق الله لآياته الكونية العجيبة ، ولهم آذان ولكنهم عطلوها فلم تعد تسمع شيئا من القرآن العظيم وهداه . ويقول الله إنهم أصبحوا بلا عقول كالأنعام من الإبل والبقر والغنم ﴿بل هم أضل﴾ من الأنعام لأن الله وهبها إلهامًا يحميها من المخاطر . أما هم فوهبهم الله عقولا حجبوها عن التبصر بالآيات الكونية لحماية أنفسهم من الشرك المفضى إلى الجحيم .

ويكثر الله – عز شأنه – من حثّ الرسول والمسلمين على استخدام عقولهم لا فى الإيمان به فحسب ، بل أيضا فى الدعوة للدين الحنيف مبيِّنًا الاستدلالات العقلية التى ينبغى أن تقوم عليها الدعوة للإسلام : ﴿ادْعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلْهم بالتى هى أحسن﴾ وسبيل الله فى الآية الدين الحنيف والله يأمر الرسول والمسلمين فى دعوتهم المشركين إلى الإسلام أن يستعينوا بثلاثة طرق : الحكمة والموعظة والمجادلة الحسنة ، واستخدمها الله جميعا فى حث المشركين على اعتناق الدين الحنيف ، والمراد بالحكمة فى الآية البراهين العقلية المحكمة مثل برهان الله على وحدانيته فى سورة (المؤمنون) بقوله :﴿وما كان معه من إلهٍ إذًا لذهب كل إلهٍ بما خلق ولعَلا بعضهم على بعضٍ سبحانَ الله عما يصفون﴾ وهو برهان إلهى عقلى عظيم على نفى الشريك والشركاء لله ، إذ لو كان مع الله آلهة لكانوا متساوين فى صفات الألوهية واختصَّ كل منهم بمخلوقاته فلا يستطيع سواه من الآلهة أن يتصرَّف فيها ، وبذلك يكونون جميعا عاجزين عن هذا التصرف ، وفى ذلك نقص ينافى الألوهية . وهو استدلال برهانى على الوحدانية ، واستدلال برهانى ثان فى الآية أنه لو تعددت الآلهة لصارت لكل منهم مخلوقاته وحاول كل منهم أن يكون له السلطان الأعظم فتطاحنوا ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ وأصبح بين الآلهة غالب ومغلوب واضطرب نظام الكون ، وهو ما لم يحدث ، إذ الكون منتظم وفى غاية الكمال مما يشهد عقلا بوحدانية الله .

والموعظة التى يأمر الله بها رسوله والمسلمين أن يتخذوها فى دعوة المشركين إلى الإسلام يمتلىء بها القرآن وتشغل موضوعين كبيرين فيه ، أولهما قصص الرسل وما فيها من تكذيب أقوامهم لهم وعقابهم عقابا شديدا بالطوفان وبالخسف والزلازل والصيحات المهلكة . وتُعْرَض صور هذا العقاب على المشركين تحذيرا لهم من تكذيب الرسول وحضا لهم على اتباعه . والموضوع

الثانى للموعظة القرآنية تخويف المشركين المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم من عذاب الجحيم الذى سيصلاه من يموت منهم كافرا مشركا بالله . وصُوَر هذا العذاب المخيف لا تكاد تخلو منها سورة إلا ما كان من بعض السور القصار . ويأمر الله الرسول والمسلمين فى الدعوة للإسلام بالمجادلة الحسنة سواء مع المشركين كما فى الآية السالفة أو مع أهل الكتاب كما فى قوله تعالى : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن﴾ والمجادلة الحسنة تكون برفق ولين ولطف فى الخطاب على نحو ما أمر الله به موسى وهرون حين أرسلهما إلى فرعون قائلا : ﴿فقولا له قولا ليِّنا لعله يتذكَّر أو يخشى﴾ . ونرى الله يذكر عن بعض مجادلات الرسول لمشركى مكة أنه كان يجادلهم مجادلة حسنة حتى إذا لَجُّوا فى الجدال قال لهم كما فى سورة الأحقاف : ﴿هو أعلم بما تُفيضون فيه﴾ أى أن الله أعلم بما تخوضون فيه من مثل دعواكم أن القرآن سحر وافتراء على الله . ولم يَكن الرسول يعنف بهم أبدا ، ويعلِّمه الله أن ينصرف عن جدالهم الذميم برفق قائلا له فى سورة الحج : ﴿وإن جادلوك﴾ أى جدال ذميم ﴿ فقل الله أعلم بما تعملون﴾ . ويبلغ من لطف الله جَلَّ شأنه بالرسول والمشركين فى مكة حين يجَادلونه مجادلات شديدة أن يقول لهم كما فى سورة سبأ : ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين﴾ وهو منتهى اللطف الإلهى إذ يعلِّم رسوله أن يقول للمشركين إنه لا يمكن أن نكون نحن وأنتم على الهدى معا أو على الضلال معا بل لابد أن أحدنا مهتد والثانى ضالّ .

وعلى هذا النحو دعا الله الرسول والمسلمين إلى استخدام عقولهم فى الدعوة للإسلام عن طريق الجدال العقلى اللين الرفيق والموعظة المؤثرة بالأمارات النظرية والبراهين العقلية المفحمة ، كما دعا الناس جميعا فى الإيمان به إلى الاحتكام إلى العقل والنظر فى آيات الله الكونية وسننه فيها والاهتداء من هذا النظر إلى الإيمان بالله خالق الكون وصانعه . وكما جعل الله العقل حكما فى الإيمان به

وفى الدعوة إلى الإسلام جعله حكما فى الشريعة الإسلامية . إذ يقول لرسوله : ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ وخطاب الرسول مضمَّن خطاب أمته كما فى آيات كثيرة بالتنزيل ، والله يقول لرسوله وللمسلمين إنه أنزل على رسوله القرآن لتحكموا بين الناس فى خصوماتهم بالطرق السديدة التى يهديكم إليها العقل . واتخذ الشافعى وغيره من الأئمة الآية دليلا على مشروعية الاجتهاد العقلى للرسول والمسلمين فى أمور الشريعة ، وجعلوه الأصل الرابع من أصولها بعد القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع الأمة .

ويدل بوضوح على أن الاجتهاد العقلى فى الشريعة شُرِع — منذ حياة الرسول — للأمة جميعها حديث معاذ بن جبل حين وجه به الرسول قاضيا إلى اليمن ، فقد سأله بِمَ تقضى ؟ فأجابه بكتاب الله ، فقال له : فإن لم تجد ؟ قال : أقضى بما قضى به رسول الله ، فقال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو (أى لا أقصر) قال رسول الله : الحمد لله الذى وفقَّ رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسوله .

وقد مضى الخلفاء الراشدون بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى يجتهدون فيما يعرض لهم وللأمة من الأمور الخطيرة ، وكان أول خَطْبٍ خطير عرض لأبى بكر الصديق فى أول خلافته مَنْع كثير من العرب للزكاة فعدَّهم مرتدين عن الإسلام ، وخطب فى الصحابة بوجوب قتالهم فكرهوا ذلك حتى عمر إذ قال له : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، فقال أبو بكر : أليس قد قال إلا بحقِّها ، ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والله لو منعونى عقالا (أى بعيرا) كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ، ولو خذلنى الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى . وانصاع عمر والصحابة له ، وحارب المرتدين : مانعى الزكاة ، وردهم إلى الدين

الحنيف : مأثرة عظيمة له ، إذ أعاد للجزيرة العربية وحدتها الإسلامية ، ودفعها إلى فتوح الشام والعراق وإيران . وخلفه عمر بن الخطاب ، وهو أكثر الخلفاء والصحابة اجتهادا فى الشريعة ونذكر من اجتهاده فيها أن عام جدب وقحط شديد ألمَّ بالجزيرة العربية فى عهد خلافته ، وعمت فيه المجاعة ، فوقف فيها حكم الشريعة فى قطع يد السارق وما جاء فى الذكر الحكيم من قوله تعالى : ﴿والسارقُ والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم﴾ لأنه عدَّ السارق حينئذ مضطرًا للسرقة ليسد رمقه . ووقفُ حكم الشريعة مؤقتا فيه اجتهاد عظيم منه .

وكان الله قد جعل مصارف الصدقات لثمانية كما فى آية سورة التوبة : ﴿إنما الصدقاتُ للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبُهم وفى الرِّقاب والغارمين وفى سبيل الله وابنِ السبيل فريضةً من الله﴾ . والفقراء والمساكين معروفون ، والعاملون عليها الجباة والسعاة الذين يجمعون الصدقات ﴿ والمؤلفة قلوبهم﴾ هم بعض أشراف العرب جعلهم الله من مصارف الصدقات تألفا لقلوبهم وتحبيبا لهم فى اعتناق الإسلام . ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم معركة حُنَين أعطى مجموعة من المؤلفة قلوبهم من قريش وغيرها مائة بعير لكل منهم ، وأعطى رجالا من قريش وغيرهم دون المائة . وكان ممن أعطاهم الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصْن الفزارى ، وقدما على أبى بكر وهو خليفة يطلبان منه نصيبهما من الصدقات فأعطاهما رسالة إلى عمر بن الخطاب مستشاره كى يرضيهما ، فقال لهما : إن الله أعزَّ الإسلام وأغنى عنكم ، فإن رجعتم إلى الإسلام فبها وإلا فبيننا وبينكم السيف . ومنع عمر كل هذه الطائفة من المؤلفة قلوبهم ما كانوا يأخذونه من الزكاة وجعلهم كغيرهم من المسلمين ، وارتضى أبو بكر الصديق عمله واجتهاده . ومن حينئذ بطل نهائيا هذا المصرف من مصارف الزكاة ، كما بطل مصرف تحرير الرقاب

إذ انتهى الرق فى العالم . وظل مصرف المجاهدين فى سبيل الله قائما ، وبالمثل ظل مصرف الغارمين أى المدينين ممن لا يستطيعون الوفاء بديونهم عونا لهم . كما ظل مصرف ابن السبيل أى الطريق وهو المسافر المجتاز ببلد وليس معه من المال ما يعينه فى سفره . وكما اجتهد عمر إزاء حكمين وردا فى القرآن الكريم اجتهد أيضا فى زواج المتعة وهو الذى يتعاقد فيه الزوجان على الزواج إلى أجل يرتضيانه ، وقد أبيح فى أول الإسلام ، واختلفت الروايات فى إباحة الرسول صلى الله عليه وسلم له وتحريمه حتى إذا كان عهد عمر فى خلافته نهى عنه نهيا باتًّا .

وهذه الاجتهادات الثلاثة لعمر تدل على الاتساع فى الاجتهاد منذ العهد الإسلامى الأول . وتوزع الصحابة فى الفتوح بين البلدان الإسلامية وكان بينهم كثيرون مجتهدين يفتون المسلمين فيما يستجد من الحوادث والنوازل والتصرفات وأمور العبادات . وأخذ الاجتهاد ينمو فى الأحكام المتصلة بفروع الدين حتى تكونت المذاهب المشهورة : مذاهب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، وظل كل مذهب يشتهر به مجتهدون فى كل قرن وفى كل بلد إسلامى يبذلون الاجتهاد العقلى فى استنباط الأحكام الشرعية من الثوابت التى جاء بها الإسلام ، وهى القرآن والحديث . وقد ظل الاجتهاد مزدهرا حتى القرن التاسع الهجرى ثم أخذ يشيع التقليد فى العصر العثمانى وبعده إلى أن ظهر الشيخ محمد عبده فى أواخر القرن الماضى فعاد الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية وعادت إليه حيويته عند الفقهاء الكبار .

وكما فتح العقل فى الشريعة الإسلامية الأبواب أمام الفقهاء أصحاب العقول الراجحة للاجتهاد والاستنباط السديد فيما يحدث أو ينزل بالناس من شئون الشريعة أغلق الأبواب بشدة وأحكم إغلاقها أمام ما كان يعتقده العرب من الخرافات وخاصة فى آلهتهم الوثنية ، ومن السحر قائلا عن اليهود فى

سورة البقرة : ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطينُ على ملك سليمان وما كفر سليمانُ ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحرَ﴾ فالساحر كافر بشهادة هذه الآية ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « حدُّ الساحر ضربه بالسيف » والمراد بالساحر من يوهم الناس بإضراره لهم زاعما أن له صلة بأرواح النجوم أو أرواح الجن . وأعلمنا رسول الله أن الطِّيرة أى التشاؤم باتجاه الطير يسارا لا يمينا شِرك . ومثلها الضرب بالحصى مع كلام غامض يوهم السامع تحقيق أمانيه كما تصنع الغجريات بضربهن الودع . ومثلهما صنيع العرَّاف ، وهو المنجم الذى يدعى أنه يستطيع النظر فى النجوم ، فيعرف أحوال الناس مما يتصل بالغيب الذى لا يعلمه إلا الله . ومثله الكاهن الذى يزعم أن له تابعا من الجن يُعْلمه بالحوادث المستقبلة والأسرار المختبئة فى الصدور ، وكان فى الجاهلية كهان كثيرون يموِّهون على من يتعرض لهم بحاجة أو سؤال بإلقائهم عليه أسجاعا مبهمة زاعمين أن تابعهم جاءهم بها من الملأ الأعلى ، ولهم أخبار وأقاصيص كثيرة رواها رواة أخبار الجاهلية عنهم ، وهى أكاذيب ملفقة ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أتى عرافا أو كاهنا فقد كفر بما أُنْزل على محمد » من القرآن الكريم القائم على العقل والاستدلالات العقلية الصائبة .

والإسلام – بكل ما قدمت – جعل العقل حكما فى الإيمان بالله عن طريق النظر فى سننه الكونية ، كما جعله أساس الدعوة الإسلامية بطرقها الثلاثة من البراهين العقلية والعظة والجدل السليم ، وجعله أصلا ثابتا فى الشريعة عن طريق الاجتهاد العقلى السديد . وحاول الله ورسوله الارتقاء بعقل الإنسان عن طريق رفضه لكل خرافة وسحر وطِيَرة وتنجيم وكهانة ، ولا ريب فى أن الله ورسوله بنيا شريعة الإسلام الموجهة للبشرية بناية عقلانية عظيمة .

٦

معانقة الإسلام للعلم

عانق الإسلام العلم فى أول آيات نزلت بالقرآن الكريم إذ خاطب الله الرسول بقوله : ﴿اقْرَأْ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ . والتعليم بالقلم فى الآيات مطلق غير مقيد بنوع خاص من أنواع العلوم التى أسبغ الله معرفتها على الإنسان . ومعروف أن منها ما يدرك بالخبر الصادق ، ومنها ما يدرك بالحواس ، ومنها ما يدرك بالوجدان ، ومنها ما يدرك بالعقل عن طريق التجربة أو طريق الاستنباط . وتشريفا للعلم أقسم الله بالقلم وما يسطِّر من العلم والمعرفة قائلا فى سورة القلم : ﴿والقلم وما يَسْطُرون﴾ وطلب إلى رسوله أن يَضْرع إليه ليزيده علما ومعرفة كما جاء فى آية سورة طَه : ﴿وقُل ربِّ زِدْنى علما﴾ . وأضفى الله على العلماء تشريفا عظيما إذ جعلهم متساوين مع الملائكة فى الشهادة المثلى بوحدانيته كما جاء فى آية سورة آل عمران : ﴿شَهِدَ الله أنه لا إله إلا هو والملائكةُ وأولو العلم﴾ . ومما يعلى العلم ويرفعه ما جاء فى أوائل سورة البقرة من حوار بين الله — عزَّ شأنه — وملائكته فى جعله آدم خليفة فى الأرض يعمرها ، فقالوا له متعجبين : ﴿أتجعل فيها من يُفْسد فيها ويسفك الدماءَ ونحن نسبِّح بحمدك ونقدِّس لك﴾ فإن مَنْ شأْنه الإفسادُ وإراقة الدماء لا يصلح لتعمير الأرض ، ونحن أحق وأولى منه بالاستخلاف ، فقال الله لهم : ﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾ مما لم يُحط به علمكم . ﴿وعلَّم آدم الأسماء كلَّها﴾ إما بالتلقين ، وإما بالإلهام ، وإما بإلقاء علم ضرورى فى ذهنه ، بحيث إذا سُئل عن اسم أى مسمًّى وضع له اسما توًّا . وعرض الله مسمَّيات الأسماء على

الملائكة ، وقال لهم : ﴿أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ فعجز الملائكة . فقال الله لآدم حينئذ : ﴿أنبئهم بأسمائهم﴾ وأنبأهم بها ، فقال الله لهم : ﴿اسجدوا لآدم﴾ سجود تعظيم ﴿ فسجدوا﴾ . وفى ذلك تشريف للعلم لا يماثله تشريف ، إذ إن الله بأمره الملائكة – المخلوقات النورانية السماوية التى تسبِّح دائما بحمده – أن تسجد لآدم جعل بذلك منزلة علمه بالأسماء فوق منزلة تسبيح الملائكة وتقديسهم له ، وهو إكبار للعلم لا يدانيه إكبار . وعلى هداه كرَّر الرسول فى أحاديثه أن العلم فوق عبادة الله وأن العالم أرفع من العابد ، ومن أحاديثه المشهورة : « فضل العالم على العابد كفضل القمر – ليلة البدر – على سائر الكواكب » . ورغَّب مرارا فى طلب العلم وقال إنه فريضة على كل مسلم ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم . وجاءه رجل من قبيلة مراد ، وهو فى المسجد ، فقال له يا رسول الله إنى جئت أطلب العلم ، فقال : « مرحبا بطالب العلم ، إن طالب العلم لتحفُّ به الملائكة وتقلُّه بأجنحتها » وكما جعل العلماءَ فوق العبَّاد جعلهم فوق الشهداء فى سبيل الله قائلا : « للعلماء على الشهداء فضل درجة » .

وقد بثَّ القرآن الكريم فى المسلمين روح العلم ، وأول ما يلاحظ من ذلك تغييره لدلالات ألفاظ كانوا يعرفونها فإذا هى تحمل دلالات جديدة ، إذ أصبحت مصطلحات فى الدين الحنيف مثل كلمات الإسلام والإيمان والكفر والشرك ، ونفس كلمة القرآن أصلها مصدر مثل الغفران ، وسمى بها الله كل ما أنزله على رسوله من آيات الذكر الحكيم فى ثلاث وعشرين سنة وأودع فى المصحف . ومن ذلك كلمة الإسلام فأصل معناها اللغوى الانقياد والخضوع ، وسمَّى بها الله الدين الحنيف فى مثل قوله : ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ . وكلمة الإيمان مشتقة من الأمان ضد الخوف ، واصطلح القرآن بها وبمشتقاتها على التصديق القلبى بوحدانية الله وبرسوله وشريعته . وكلمة الكفر أصل معناها اللغوى الستر

والتغطية ، واصطلح بها القرآن على عبادة غير الله هى ومشتقاتها . وكلمة الشرك أصل معناها اللغوى الاشتراك فى أى شىء ، واصطلح بها القرآن هى ومشتقاتها على اتخاذ الكافر شريكا لله فى ربوبيته كما قال لقمان لابنه : ﴿يا بُنَىَّ لا تشرك بالله إنَّ الشِّرك لظلمٌ عظيم﴾ .

وقد لا يكون للمصطلح القرآنى أصل فى اللغة ووُضع ابتداء مثل كلمة النفاق ، وهو إضمار الكفر وإظهار الإسلام ، وذكر اللغويون أن عرب الجاهلية لم يستخدموا هذه المادة لا فى الأفعال ولا فى الأسماء ، إذ لم تجئ فى أشعارهم كلمة « نافَق ومنافق » مما نقرؤه مرارا فى القرآن الكريم . وذكر اللغويون أنه جاءت عن الجاهلية كلمة النافقاء ، وهى جُحْر لليربوع (حيوان على هيئة الفأر) كان يكتم فيه مخرجا له من غير بابه ، فإذا هوجم من الباب فَرَّ سريعا منه . وكأنما اتخذ القرآن من اسم هذا الجُحر كلمة النفاق ، إذ المنافق بإعلانه الإسلام يدخل فيه من باب ، ويخرج منه بكتمانه الكفر من باب آخر . ومثل كلمة النفاق التى وضعها القرآن كلمة فاسق ومشتقاتها ، فقد ذكر ابن الأعرابى الحجة فى اللغة : أنه لم تسمع كلمة فاسق فى كلام أهل الجاهلية ولا فى شعرهم مما يدل على أن القرآن وضعها ابتداء للدلالة على عصيان صاحبها لله .

وأخذ ينشأ سريعا علم تفسير القرآن عملا بقوله تعالى لرسوله : ﴿ وأنزلنا إليك الذِّكرَ﴾ أى القرآن ﴿لتبين للناس ما نُزِّل إليهم﴾ فكان يبين للصحابة ما فى آيات القرآن من أحكام أمرًا ونهيًا ويشرح لهم معانى آياته . والرسول – بذلك – يُعَد المفسِّر الأول للقرآن ومعانيه وتعاليمه ، وعن ابن مسعود – رضى الله عنه – كان الرجل منَّا (أى من الصحابة) إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن . وأخذ الصحابة بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى يفسرون للمسلمين القرآن على هدى ما سمعوه منه . ويذكر السيوطى فى كتابه الإتقان أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة

آلاف حديث من تفاسير النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة فى كتاب له سماه « ترجمان القرآن » وأنه اختصره فى كتاب له سماه « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » .

ونشأ أيضا سريعا علم السنة الشريفة أو الحديث النبوى إذ كان القرآن الكريم يذكر أحكام الشريعة الإسلامية مجملة دون تفصيل ، والرسول – صلى الله عليه وسلم – هو الذى فصَّلها وبيَّنها بيانا تاما فالقرآن مثلا لم يذكر تفاصيل الصلاة والزكاة ، وهما من أهم أركان الإسلام ، بل اكتفى بمثل قوله تعالى : ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ والحديث النبوى هو الذى بيَّن كيفية الصلاة وأنها تبدأ بالقيام والنيَّة والتكبير وقراءة الفاتحة وما يتلوها من ركوع وسجود مع التسبيح وتحيات وسطى فى غير صلاة الصبح وركعة بعدها فى صلاة المغرب وركعتين فى بقية الصلوات ، وتحيات نهائية . وبيَّن أوقات الصلوات وأنها خمس فرائض ، وذكر القرآن ما ينبغى أن يتقدمها من الوضوء وكيفيته . وبالمثل ذُكرت الزكاة فى القرآن مجملة ، والرسول هو الذى بين مقاديرها الواجبة على كل مسلم سنويا فى الأموال والزروع والأنعام من الإبل وغيرها قلة وكثرة . ووراء توضيحات الرسول لفرائض الشريعة مئات الأحاديث بل آلافها فى فروعها المكملة لها ، ومن هنا كان الحديث النبوى مكملا ومتمما بعد القرآن للشريعة الإسلامية . ويأمر الله المسلمين فى القرآن مرارا أن يتمسكوا بكل ما يذكره رسوله لهم فيعملوا به ممتثلين لأوامره وكافِّين عن نواهيه ، يقول جَلَّ شأنه فى سورة الحشر : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ . وسمَّى الرسول أحاديثه باسم السنَّة أى الطريقة التى كان يعمل بها هو وصحابته ومن قوله : عليكم بسنَّتى ، عَضُّوا عليها بالنواجذ ، وعن ابن عباس أن الرسول قال : اللهم ارحم خلفائى ، فقلنا يا رسول الله ومَن خلفاؤك ، قال : الذين يروون أحاديثى ويعلمونها الناس . وكان يوصى الوفود بتعليمها لأقوامهم .

وحرص الصحابة عليها فرووها وتدارسوها وأخذها عنهم التابعون وكانت - منذ ألقاها الرسول - علمًا له قُدسيته .

ونشأ - منذ عصر الرسول - علم ثالث هو علم الفقه ، وهو يتناول أحكام الله فى أفعال المكلفين بالوجوب والنهى والندب والإباحة ، ويشمل جميع العبادات والمعاملات والعقود والميراث وفروضه . وتكثر المصطلحات العلمية الجديدة التى وضعها الله ورسوله فيه . ونكتفى بالوقوف عند مصطلحات العبادات ، وهى الصلاة والزكاة والصيام والحج . وأصل المعنى اللغوى للصلاة الدعاء وجعلها القرآن مصطلحا للعبادة الأساسية المعروفة فى الإسلام ، ويتقدمها الوضوء وأصل معناه الغسل وجعلته الشريعة غسلا ومسحا على أعضاء مخصوصة فى الإنسان ، ويتبعه القيام مع التكبير والركوع والسجود . والأصل اللغوى للركوع الانحناء ، اصطلح به القرآن فى الصلاة على انحناء بهيئة مخصوصة مع التسبيح . والأصل اللغوى للسجود التذلل واصطلح به القرآن على وضع المصلى جبهته ويديه على الأرض بهيئة مخصوصة مع التسبيح . وإذا لم يوجد الماء للوضوء من أجل الصلاة حل محله التيمم وأصل معناه التوخى والقصد وجعله القرآن مصطلحا لمسح الوجه واليدين بالتراب . والمعنى اللغوى للزكاة النماء ، واصطلح بها القرآن على حصة من المال وما يماثله يوجب الشرع إعطاءها للفقراء وأشباههم بشروط خاصة . وتتصل بها الصدقة المذكورة فى القرآن ، وهى مشتقة من الصداقة ، وكأنما أراد الله - جلّ شأنه - بتسميتها أنها تغرس المودة بين المسلمين بما تسخو به نفوسهم من أموالهم ، بإعطائها إخوانهم من الفقراء والمساكين . والمعنى اللغوى للصيام : الإمساك عن الشىء ، واصطلح به القرآن على الإمساك عن الطعام والشراب من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . والمعنى اللغوى للحج : القصد ، واصطلح به القرآن على قَصد البيت الحرام فى أشهر معلومات لأداء مناسك خاصة . وسجّل القرآن مع الحج المتعة

بالعُمرة قبل الحج فى قوله تعالى بآية البقرة : ﴿فمن تمتّع بالعمرة إلى الحج﴾ والعُمرة لغة من الاعتمار وهو الزيارة ، واصطلح بها القرآن على نسك به طوافٌ بالكعبة ، وسعى بين الصَّفا والمروة ، وتسبيح ، ومعها إحرام ، وليس لها وقت معين فى السنة . والتمتع لغة الانتفاع ، واصطلح به القرآن على إحرام الحاج بالعمرة ، حتى إذا أدَّاها الحاج يُحِلّ ، فيتمتع بما كان يتمتع به قبل العمرة إلى أن يحرم بالحج . وسجل القرآن من مناسك الحج الطواف بالكعبة والسَّعْىُ بين الصفا والمروة والنَّفر من عرفات إلى المزدلفة أو الإفاضة .

ونكتفى بذلك من المصطلحات التى تُعَدّ – فى الفقه – بالعشرات ، ونرى الله – عزّ شأنه – بعد أن يحضّ المسلمين على النفر مع الرسول لجهاد أعداء الإسلام – فى سورة التوبة – يحضهم على النَّفر إلى رسوله ليتعلموا على يديه تفسير القرآن وسنّته وأوامر الشريعة ونواهيها الفقهية ، ويعلّموا ذلك كله لقبائلهم وأقوامهم ، يقول عزّ سلطانه : ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافّة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ . وهو استنفار إلهى عظيم لتعلم شريعة الإسلام وعلومه ونشرها فى الأمة ، وفعلا استجاب المسلمون لهذا النداء الربانى واستحالت المدينة دار علم كبرى هيأت لحركة علمية واسعة كان أُستاذها ومعلمها الرسول فقيه الأمة الأكبر ومفسر قرآنها العظيم ، وتلاميذها صحابته .

ومعروف أن الشريعة الإسلامية فى القرآن والسنة تتسع سعة كبيرة فلا تقف عند العبادات ، بل تشمل جميع جوانب الحياة للبشر واضعة لها القوانين فى نظام الأسرة وبرّ الوالدين والزواج والمودة بين الزوجين وعِدَّة الزوجة المطلقة ونفقتها فيها ونفقة المرضع وأنصبة الوارثين والوارثات ، والتجارة والبيع والشراء ، والزراعة واستثمارها ، والدَّين وما ينبغى له من التوثيق والإشهاد والرهن والائتمان ، ومصارف الزكاة والصدقة وتحريم

السرقة والقتل والرِّبا والزِّنا والخمر والميسر وأحكام الحرب والجهاد وحقوق المحاربين والمعاهدات ، وقيام الحكم على الشورى والعدل ، مع مبادئ خلقية وتهذيبية رفيعة .

وواضح مما قدمت أن الإسلام لا يعانق العلم فحسب ، بل يتحد معه مكونا علوما ثلاثة ، هى علم التفسير ، وعلم الحديث أو السنة ، وعلم الفقه . والقرآن بجانب هذه العلوم الدينية ينوِّه بالعلوم الطبيعية والعلوم الفلكية والرياضية والعلوم الطبية . ويكثر الله من الإشارة إلى العلوم الأولى وما أنعم الله به على الإنسان من بسطه الأرض له وجعله فيها جبالا حتى لا تميد به وأنهارا جارية أنزل لها وللعيون الماء من السماء أو السحاب ليرتوى منه الناس ويستخدموه فى زروعهم التى تنتج الحبوب وأشجارهم التى تنتج كل الثمرات من العنب والتمر والزيتون والفواكه من كل صنف بهيج ، مع ما بث فيها من الحيوانات وتذليله الإبلَ والخيل والدواب للإنسان وتسخير البحر له لركوبه وما يجرى فيه من السفن لتجارته ونفعه ، مع ما يجرى فى السماء من الطير على كل لون . وما من عالَمٍ فى الطبيعة إلا ذكر فى القرآن : ذكر عالم الأرض بجبالها وعالم البحار وعالم الطير وعالَمُ النبات وعالم الأشجار وعالم الحيوان والدواب وعالم الزواحف من الأفاعى والحشرات . وإذا تركنا العلوم الطبيعية إلى العلوم الفلكية والرياضية وجدنا الله يذكر مرارا بروج الشمس ، والبروج جمع برج وهو الحصن والمنزل العالى ، وهى منازل للشمس ، تتجمع فيها نجوم لو وصل بينها بخيوط لخرج منها غالبا ما يشبه صورة حيوان . والشمس تحلُّ شهريا فى منزل ثم تنتقل منه إلى منزل آخر ، بحيث يصبح لها اثنا عشر منزلا بعدد شهور السنة ، ثلاثة منها بروج الشتاء وهى الجدى والدلو والحوت ، وثلاثة منها بروج الربيع وهى الحمل أى الكبش والثور والجوزاء ، وثلاثة بروج الصيف وهى السرطان والأسد والسنبلة ، وثلاثة بروج الخريف وهى الميزان والعقرب والقوس . والله ذكرها فى مثل قوله :

﴿والسماءِ ذات البروج﴾ للدلالة على عظيم قدرته . ويقول فى سورة يونس : ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحسابَ﴾ والضياء : النور الساطع . ومنازل القمر : مواضعه التى يظهر بها فى كل ليلة من ليالى الشهر ، وهى ثمانية وعشرون منزلا ، مقسمة على بروج الشمس ، وأسماؤها الثمانية والعشرون مذكورة فى كتب علماء الفلك مثل السِّماك الأعزل – سعد الذابح – سعد السعود – الشرطان إلى غير ذلك . ويقول الله فى سورة الأنعام : ﴿والشمسَ والقمر حُسْبانا﴾ أى أنه قدَّرهما منازل لتعلموا الأوقات من الأيام والليالى والشهور والسنين لمعرفة معاشكم وضبط أموركم ومعاملاتكم وما تريدون من التاريخ ، وهو أصل من أصول الحياة والحضارة .

وفى القرآن إشارات مختلفة إلى العلوم الطبية ، مما جعل مؤتمرات طبية متعددة تنعقد لبيان ما فيه من إشارات ومعجزات طبية ، من ذلك ما جاء فى سورة (المؤمنون) من أطوار خلق الجنين فى بطن أمه ، والله يقول فى أول الآيات إن الإنسان مخلوق ﴿من سُلالةٍ من طين﴾ مشيرا بذلك إلى خلقه لآدم من طين ، ثم يعرض أدوار خلقه للجنين قائلا : ﴿ثم جعلناه نُطْفة فى قرار مكين﴾ من رحم أمه ﴿ثم خلقنا النطفة عَلَقة﴾ وهى دم غليظ ﴿فخلقنا العلقة مُضغةً﴾ وهى القطعة من اللحم ﴿فخلقنا المضغة﴾ أى معظمها ﴿عظاما﴾ تتكون داخلها ﴿فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر﴾ إذ نفخنا فيه الروح . وهى معجزة طبية ربانية فى القرآن تصوّر الأطوار المختلفة للجنين حتى يتخلّق كائنا حيا .

وكل ما أسلفت من تنويه القرآن الكريم بالعلوم الطبيعية والفلكية والطبية مع اتحاده بالعلم فى العلوم الدينية ملأ قلوب المسلمين شغفا بالعلم فى مختلف أنواعه ، وما إن انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى حتى أكبَّ المسلمون على مدارسة العلوم الدينية : علم التفسير وعلم الحديث أو السنة وعلم الفقه ،

وأخذوا يحاولون التعرف – بعد الفتوح الإسلامية – على ما لدى الأمم المستعربة من علوم الكيمياء والفلك والرياضيات والطب ، ولم تلبث أن قامت حركة كبرى من الترجمة لتلك العلوم وما يماثلها على نحو ما مر بنا فى التعايش الفكرى وعقلانية الإسلام . وتمثّلها المسلمون ، وتمّ وضع النحو وعلوم اللغة استجابة للشعوب المستعربة التى أحست الحاجة الشديدة لمعرفة أوضاع العربية فى الإعراب والتصريف للكلمات . وأخذت حركات تعليمية كبرى تنهض نهضة واسعة فى العلوم الدينية والعلوم اللغوية والعلوم الأجنبية . ولم يلبث المسلمون – كما مرّ بنا – أن قادوا العالم علميا وحضاريا لمدة ستة قرون حتى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

وبحق جعل الله الأمة الإسلامية أمة علم وتعلم ، وكان الناشئة فيها يبدأون بالتعلم فى الكتاتيب حيث يتعلمون الخط والقراءة والكتابة وبعض سور القرآن وشيئا من الحساب والنحو وبعض الأشعار والأمثال . وكانوا يؤثرون فى تعليم البنات الصغيرات تحفيظهن القرآن الكريم وخاصة سورة النور . ولم تكن عند المسلمين مراحل للتعليم مثلنا اليوم ، وكان تعليم الكتّاب يحلّ محل تعليمنا الابتدائى والإعدادى ، وعادة يحفظ الصبى فيه أو الغلام القرآن . وكانت المساجد ساحات العلم الكبرى ، ومن يريد من الشباب أن يكمل تعلمه بعد الكتاتيب يختلف بها إلى حلقات العلماء ، وكانت أشبه بمعاهد عليا ، إذ لم تكن دورا لعبادة الله والصلاة فقط ، بل كانت أيضا دورا للعلم والعلماء . وكان لكل عالم فى كل فرع من الفروع حلقة كبرى ، يتحلق فيها طلابه من حوله ، وكان عادة يستند إلى أسطوانة من أساطين المسجد أو يجلس على مقعد مرتفع ، ثم يملى محاضراته ، والطلاب يكتبون . وإذا كانوا كثيرين بحيث لا يسمعه البعيد عنه ردّد مستملٍ كلامه حتى يستطيع البعيدون عنه سماع ما يقوله وكتابته . وكانت حلقات الفقهاء من أكثر الحلقات طلابا ، إذ كان الإلمام بالفقه يُعِدُّ طالبه

إلى تولى مناصب الحسبة لمراقبة الأسواق ومناصب الشرطة والقضاء والولاية أحيانا . ولم يكن يشترط للحضور فى حلقات المساجد أى شرط سوى الرغبة فى السماع لمحاضرة هذا العالم أو ذاك ، وأتاح ذلك لظاهرتين كبيرتين : أولاهما كثرة العلماء المتخصصين فى كل علم ، حتى ليروى أن النَّضر بن شُمَيْل تلميذ الخليل بن أحمد حين عزم على الخروج من البصرة فى العراق إلى خراسان شيَّعه مودِّعا له نحو ثلاثة آلاف عالم بين محدث ونحوى ولغوى وعروضى وإخبارى . ولابد أن كان وراء هذا العدد الضخم فى البصرة بالقرن الثانى الهجرى كثيرون تخلفوا عن تشييعه وتوديعه . وإذا كانت البصرة اشتملت على هذا العدد الكبير من العلماء ، فما لا ريب فيه أن بغداد كانت تشتمل من العلماء على أضعاف لهذا العدد مضاعفة .

والظاهرة الثانية التى تقابل تلك الظاهرة هى نشوء طائفة من العلماء والأدباء الذين نوَّعوا معارفهم تنويعا واسعا ، إذ لم يكتفوا بالاختلاف إلى حلقة واحدة من حلقات العلماء ، بل مضوا يختلفون إلى جميع الحلقات أو إلى كثير منها آخذين بطرف من كل نوع من أنواع المعرفة ، حتى ليشبهون شبها كبيرا الصحفيين فى عصرنا الذين يستطيعون أن يتحدثوا حديثا شائقا فى كل ألوان المعرفة والثقافة . وسمَّى الجاحظ هذه الطائفة فى بلدته : البصرة باسم المسجديين ، ويقول : كانت لهم حلقات خاصة بهم فى المساجد كانوا يتجادلون فيها ويتحاورون فى أى شيء يعرض لهم ، وذكر فى كتابه البخلاء صورة من جدالهم وحوارهم تحاوروا فيها عن الاقتصاد فى النفقة وطرق التثمير للمال . وكانت سوقهم نافقة فى مجالس الخلفاء والوزراء وأعيان القوم بما كانوا يُطْرِفونهم به من الأحاديث الممتعة .

وكان من أهم ما عمل على إشعال الحركة العلمية فى العصر العباسى وإمدادها بوقود لا ينفد مناظرات العلماء فى المساجد وقصور الخلفاء والوزراء وسَراة القوم ، وكان الشباب يختلف فى المساجد إلى مناظرات الفقهاء واللغويين

والمتكلمين ليتعلم قَرْع البرهان بالبرهان وكيف تكون غلبة الخصوم . وكان ليحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد مجلس للمناظرة يجتمع فيه أهل الكلام من المسلمين وغيرهم من أهل الملل وكانوا يتناظرون فى كثير من مسائل الفلسفة وعلم الكلام ، وروى المسعودى حوارا طريفا فى هذا المجلس عن العشق وماهيته . وكان مجلس الخليفة المأمون ساحة كبيرة للحوار والمناظرة ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالعلوم الدينية واللغوية وبالفلسفة والعلوم المختلفة ، واستحالت مجالسه فى دار الخلافة ببغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة ، ويعرض طيفور فى كتابه : بغداد كثيرا من هذه الندوات وما طُرح فيها من موضوعات للجدل والمناظرة ، ويقول المسعودى إن هذه الندوات فى مجالس المأمون علمت الناس صنعة النظر والبحث والجدل ، وَوضَع بعض المتناظرين كتبا تؤيد مذهبه الذى جادل وناظر عنه . وكثرت المناظرات كثرة مفرطة فى مجالس المتكلمين ، ومرَّ بنا فى عقلانية الإسلام مجالس كبيرة لهم بالبصرة وبغداد كانت تضم كثيرين من أصحاب الملل والنحل . وكثيرٌ من كتب العصر العباسى يُعَنْوَنُ بكلمة الرد أو النقض ، وكأنما كانت المناظرات والمجادلات لغة العصر الفكرية ، وكثيرا ما يكتب الجاحظ رسالة فى مدح شىء أو جماعة ، ويعود فيذمهما ، وله كتاب المحاسن والأضداد ، وهو مجموعة كبيرة من الأخلاق والخصال ، وفيه يعرض محاسن الخلق ، ثم يعرض معايبه فى أخبار وأقاصيص وحكايات تلتقى فيها الثقافات العربية والفارسية والهندية واليونانية .

وكان من أهم الأسباب فى بلوغ النهضة العلمية الإسلامية أوجها المنتظر منذ الربع الأخير من القرن الثانى للهجرة / الثامن الميلادى وما بعد ذلك من قرون أن الفضل بن يحيى البرمكى وزير الرشيد أنشأ ببغداد مصنعا للورق ، فانتقل الناس من الكتابة فى الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق

البردى إلى الكتابة فى الورق لخفّته ورخص ثمنه . وسرعان ما كثرت الكتب والمؤلفات ، كما كثر الورّاقون الذين يعيشون من نسخها ، وأنشأ كثيرون منهم دكاكين للتجارة فيها ، واختلف إليها الشباب والعلماء لا لشراء المؤلفات والكتب فحسب ، بل ليقرءوا فيها ، وكانوا يؤجّرونها لذلك ويبيتون فيها يقرءون على المصابيح وينسخون منها الأفكار والصحف والرسائل . وكان لذلك أثر كبير فى نهضة الحركة العلمية الإسلامية نهضة واسعة ، إذ أصبحت الكتب والمؤلفات تلقاء أعين الشباب والطلاب وبأيديهم ، يتزودون منها كما يشاءون أزوادا كانت أيسر وأسهل من التلقى عن العلماء والشيوخ فى المساجد .

وسريعا أخذت تنشأ المكتبات العامة والخاصة ، وبادر الرشيد فأنشأ مكتبة عامة كبيرة باسم دار الحكمة ، ووظف بها طائفة كبيرة من المترجمين كما مر فى حديثنا عن عقلانية الإسلام ، وعُنى بها ابنه المأمون عناية أكبر وأوسع . وعُنى يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد بمكتبة كبيرة له ، ويقال : لم يكن فى مكتبته كتاب إلا وله ثلاث نسخ . وعُنى العلماء باقتناء المكتبات ، ويقال إن مكتبة الواقدى المؤرخ كانت تشتمل على ستمائة صندوق من الكتب ، وكان له ناسخان مملوكان يكتبان له ليلا ونهارا . وعُنى بعض المثقفين من السراة ببناء مكتبات عامة يتزود فيها الناس بما يشاءون من العلوم مثل على بن يحيى المنجم معاصر المتوكل إذ بنى قصرا جعله خزانة كتب عظيمة كان الناس يقصدونها من كل بلد فيقيمون فيها ويعكفون على الكتب العلمية . وتتكاثر المكتبات العامة والخاصة فى مدن العالم الإسلامى ، وفى مقدمتها مكتبات المساجد ، وكانت مفتوحة دائما لكل من يريد أن يقرأ أو يطلع . ونلتقى فى كل بلد إسلامى بمكتبات عامة كبرى واشتهرت بمصر مكتبة العزيز الفاطمى ، ويقال إنه كان بها مائتا ألف مجلد ، واشتهرت فى قرطبة بالأندلس مكتبة الحكم المستنصر

الأموى العامة ، وكان له وراقون بعواصم البلاد الإسلامية يجلبون إليه الكتب فى مختلف العلوم ، وكان عدد فهارس مكتبته أربعا وأربعين ، وفى كل فهرس عشرون ورقة ويقال خمسون ورقة . ومنذ أواخر القرن الثانى الهجرى وطوال القرون التالية تكثر دكاكين الوراقين الذين ملئوها بالكتب لبيعها والاتجار بها . وتلقانا فى كل بلد سوق لهم ، وكانوا يعدون بالعشرات .

وكان المسلمون يكبُّون على الكتب والعلوم منذ عصورهم الأولى إكبابا لم يعرف لأمة من الأمم بفضل القرآ ن والسنة وحثهما الشديد للمسلمين على التعلم ، حتى لتعد الأمة الإسلامية أمة العلم ، فقد شغف به جميع أفرادها وتجرد منهم كثيرون يريدون أن يحوزوا الأدب والعلم لأنفسهم ، وكثير منهم منذ القرن الثالث الهجرى يؤلف حَشْدا من الكتب مثل الجاحظ الذى ألف من الكتب العظام وعشرات الرسائل ما يُعدُّ مكتبة كبيرة . وكان محمد بن جرير الطبرى صاحب التفسير والتاريخ الضخمين لا يخلى يوما من كتابة عدد من الصفحات قرَّره على نفسه ، كأنه فريضة يؤديها للمجتمع ، وأحصى بعض تلاميذه الأوراق التى كتبها وألَّف منها كتبه ، فقال إنه مكث أربعين سنة يكتب فى كل يوم أربعين ورقة ، وحَسِبها آخر مقسومة على عدد أيامه التى عاشها من مولده إلى وفاته فوجده ألَّف فى كل يوم أربع عشرة ورقة . ولذلك لا نعجب أن نجد محمد بن زكريا الرازى معاصره المتوفى فى سنة ٣٢٠ للهجرة يخلِّف - فى رواية البيرونى - ٥٦ كتابا فى الطب و ٤٤ فى الطبيعيات ، وعشرة كتب فى الرياضيات و ١٧ فى الفلسفة وثمانية فى المنطق و ٢٣ فى الكيمياء . ومن أعظم كتبه الحاوى وهو دائرة معارف طبِّية . وله كتاب فى الطب الروحانى . وكان يقابله فى الأندلس الزهراوى وله موسوعة طبية كبيرة فى ثلاثين مجلدا . وناهيك بأعمال ابن سينا الذى تعد مؤلفاته ورسائله بالمئات ، وظل كتابه « القانون فى الطب » وموسوعة الزهراوى وكتب الرازى تدرس جميعا فى

الجامعات الأوربية من القرن الثالث عشر للميلاد إلى القرن السابع عشر . وفى كل علم لغوى أو دينى تلقانا موسوعات ضخمة فضلا عن مئات الكتب ، ويكفى أن نشير إلى معجم لسان العرب وهو فى عشرين مجلدا ضخما .

وظاهرة مهمة اقترنت بالعلم عند العرب منذ نشأته وهى أنه لم يكن مقصورا على طبقات خاصة . بل كان دائما عاما لطبقات الشعب ، إذ كان مطروحا باستمرار فى حلقات الشيوخ بالمساجد ، وفيما نشأ بها من مكتبات . ومنذ أواخر القرن الثانى الهجرى تنشأ المكتبات العامة فى كل بلد إسلامى وتنشأ معها دكاكين الوراقين ، ولا مصاريف تطلب للتعليم ، فالتعليم مجانا من حق الجميع . والطبقات الشعبية العامة تشارك فيه بحظ بل بحظوظ كثيرة ، ويدل على ذلك أكبر الدلالة أن من يرجع إلى تراجم العلماء والأدباء شعراء وكتابا سيجد أكثرهم من أبناء الطبقة العامة . وتصور ذلك ألقابهم مثل الحدّاد والخزّاز والبزّاز والقواريرى والقوّاس والنبّال والعطار والمطرز ، ونجد بين علماء الكلام أبا أحمد التّمّار وشعيب القلاّل ، ونشأ أبو نواس غلاما لعطار ، ونشأ أبو العتاهية يبيع الخزف والجرار حاملا لهما على ظهره فى شوارع الكوفة ، ونشأ الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان أحد نهيرات البصرة . وبين أيدينا نصوص تشهد بأن كثيرًا من العامة كانوا ينالون حظوظا مختلفة من الثقافة . ولم يكن يحول بينهم وبينها أى حجاب إذ كانوا يروحون إليها ويغدون فى المساجد ومكتباتها ودكاكين الورّاقين . ومما يدل على ذلك أن نرى الجاحظ فى القرن الثالث يقول : « وسألت بعض العطارين من أصحاب المعتزلة » وكأن العطارين حينئذ كانوا أقساما ، منهم من يتبع المعتزلة ومنهم من يتبع غيرهم من أصحاب المذاهب ، ولابد أن كان مثلهم بقية التجار وأصحاب الحرف . فهم يناصرون هذا المذهب أو ذاك وهم يناصرون هذا الأستاذ أو ذاك ، ولكل أستاذ أتباعه لا من أوساط المثقفين فحسب ، بل له أنصاره أيضا من العامة .

ولعل فيما ذكرت ما يوضح كيف أن العلوم والمعارف تغلغلت فى جميع

الأوساط حتى فى أوساط العامة . ومن أكبر الأدلة على ذلك أن نجد جمعية شيعية إسماعيلية . تريد أن تدعو فى العامة لنحلتها الإسماعيلية الشيعية المتطرفة ، فرأت أن تدعو لها دعوة مستترة فى رسائل فلسفية وعلمية فصنفت اثنتين وخمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة النظرية والعملية ، وسمتها : « رسائل إخوان الصفا » وكتم مؤلفوها أسماءهم وبثوها فى الورّاقين ، وتتضمن ١٤ رسالة فى الرياضيات والمنطق ، و١٧ فى العلوم الطبيعية وعلم النفس ، و١٠ فى الميتافيزيقا والإلهيات ، و١١ فى التصوف والتنجيم والسحر . وبها أفكار إسماعيلية شيعية مختلفة نُثرت فى تضاعيفها لغرض تنظيم الدعوة الإسماعيلية . ويهمنا أن نذكر أن إخوان الصفا رأوا فى دعوتهم — لنحلتهم الإسماعيلية بين العامة — أن يبثوها فى رسائل فلسفية وعلمية ، مما يدل على أن الثقافة الفلسفية والعلمية كانت شائعة فى كل الأوساط ، حتى لتلجأ جمعية إسماعيلية سرية لاتخاذها وسيلة لنشر نحلتها الشيعية فى الناس . ويخيل إلى الإنسان كأنما كان أهل بغداد جميعا على حظ من الفلسفة والعلم ، ومما يشهد لذلك قصة المزيِّن الثرثار فى كتاب ألف ليلة وليلة . إذ قال لشاب بغدادى فى كلام حدَّثه به : « قد منَّ الله عليك بمزيِّن منجِّم عالم بصناعة الكيمياء والسيمياء والنحو والصرف واللغة وعلم المعانى والبيان وعلم المنطق والحساب والهيئة (علم الفلك) والهندسة والفقه والحديث والتفسير » .

وكل ما تحدثت به حتى الآن عن معانقة الإسلام للعلم لا يتجاوز القرون الأربعة الأولى للهجرة . وفيها كان المتعلمون فى أوربا يقلون قلة شديدة ، ولم تكن الكتب تعرف عندهم إلا فى الأديرة ، بينما كانت عند المسلمين مطروحة فى المساجد والمكتبات العامة ودكاكين الورّاقين . وأخذت تنشأ عندنا المدارس منذ القرن الرابع الهجرى يبنيها السَّراة الذين كانوا يعدون أنفسهم حماة للعلم ، وأخذ نظام الملك وزير السلجوقيين يُنْشِئُ فى كل بلد عراقى أو إيرانى مدرسة

أشبه بجامعة . إذ كان بها كل فروع العلم ، وألحقت بها مساكن للأساتذة والطلبة ، ورُصدت لهم رواتب لمعاشهم جميعا . وعمت هذه المدارس فى العالم العربى وأخذ ينشأ فى العلم سباق هائل بين العلماء فى كل بلد إذ كانت تعم فى الأمة وحدة علمية شرقا وغربا . وكانت جوامع كبرى قد نشأتْ فى العالم الإسلامى واستحالت إلى جامعات تعلَّم فيها العلوم الدينية واللغوية على أعلام أئمة فى كل علم من مثل جامع القرويين بفاس وجامع عقبة بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس والمسجد الأموى بدمشق ، والجامع الأزهر بالقاهرة وقد كُفِلَ فيه للطلاب من كل بلد إسلامى — حتى اليوم — المسكن والنفقة . وهذه النهضة العلمية العالمية التى قاد فيها المسلمون العالم وحدهم طوال ستة قرون بلغوا فيها القمة فى كل علم . سواء فى العلوم الدينية واللغوية ، أو فى علوم الأمم السابقة لهم من كيمياء وطبيعة ورياضيات وفلك وطب وهندسة . ونفذوا مبكرين إلى إيجاد فلسفة إسلامية مزجوا فيها بين روح الإسلام والفلسفة اليونانية ، وتألق لهم فيها — على مر الزمن — فلاسفة عظام . وكل ذلك بفضل مابثّ القرآن الكريم والحديث الشريف فى قلوب المسلمين من شغف شديد بالعلم لا يماثله شغف ، حتى لكأنما أصبح جزءا لا يتجزّأ من عقيدتهم الدينية .

واستيقظت أوربا من سباتها الطويل — فى القرن الحادى عشر الميلادى — على رؤية هذه النهضة العلمية الإسلامية الباهرة ، وسرعان ما أخذ كثيرون من شبابها يطلبون معرفتها ، فرحلوا إلى مدن الأندلس ، يريدون التثقف بعلومها ، وتعلموا العربية ، وتتلمذوا على علمائها ، وأكبوًّا على ترجمة نفائسها العلمية والفلسفية إلى اللاتينية : لغتهم العلمية حينذاك فى ديارهم ، ويقول ألدوميلى فى كتابه : « العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى » : تُرْجمت كل كتب العلماء العرب العظام — على وجه التقريب — إلى اللاتينية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد » وقد تدارسوها واستوعبوها وتمثلوها وأضاءت لهم مسالكهم إلى نهضتهم العلمية الحديثة .

وطبيعى والقرآن والحديث يدعوان الأمة رجالا ونساء إلى التعلم أن يصبح للنساء دور فى الحركة العلمية الإسلامية منذ عصر الصحابة ، وأستاذتهن جميعا – على مر القرون – السيدة عائشة أم المؤمنين زوجة الرسول رضى الله عنها التى قال فيها : خذوا العلم عن هذه الحُمَيْراء ، وقد روت عنه أكثر من ألفى حديث تحمل كثرة من الأحكام التشريعية التى اعتدّ بها فقهاء الأمة كما اعتدوا بأحاديث عن زوجات الرسول الأخريات وعن بعض الصحابيات . ومعروف أن عمر بن الخطاب استعان فى خلافته بصحابية من المهاجرات القرشيات جعلها حاسبة فى سوق المدينة هى الشفاء بنت عبد الله تراقب الأسعار فى البيع والشراء وتَفْصل فى الخصومات . وعمَّ – فى كل قطر بعد الفتوح – تعلمُ المرأة المسلمة ، حتى تحفظ سورا من القرآن وبعض الأحاديث وبعض الأحكام الفقهية المتصلة بأداء الفرائض الدينية . ولما أخذت الحركة العلمية الإسلامية فى الازدهار بالقرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى وبعده بادر النساء المسلمات إلى الحضور فى حلقات المحدثين والفقهاء والمتكلمين ، وتشتهر فى كل قطر إسلامى محدثات يؤخذ عنهن الحديث النبوى ، ومن أوائلهن فى مصر السيدة نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب المتوفَّاة سنة ٢٠٨ للهجرة وكانت تملى الحديث النبوى على المصريين والمصريات فى مسجدها بالفسطاط ، وممن حضر مجالس إملائها للحديث وسماعه منها الإمام الشافعى صاحب المذهب المشهور .

وفى كل بلد إسلامى تشتهر محدثات ومقرئات لقراءات القرآن الكريم ومفسرات للقرآن وفقيهات . ويخصُّ الفاسى فى كتابه : « العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين » أى مكة المحدثات بالحرم الملكى بالجزء الثامن من الكتاب ، إذ يترجم فيه لعشرات من النساء المحدثات من أهل مكة أو النازلات بها اللائى أخذ عنهن كثيرون من أجلاء المحدثين الحديث النبوى . وتشتهر جارية لأم الخليفة المقتدر اسمها ثمل بأنها فقيهة وأنها جلست فى سنة ٣٠٦ للهجرة للحكم بين المتظالمين وسماع المظالم وجلس معها القضاة والعلماء . واختلف الفقهاء

حينئذ فى جواز ولاية المرأة للقضاء ، وأجاز ذلك الإمام الطبرى أكبر علماء التفسير فى زمنه ، وهى فتوى تدل على ما بلغته المرأة المسلمة فى ذلك التاريخ من التعمق فى الفقه وعلوم الشريعة الإسلامية ، ومنذ القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى يَتَفرَّغ كثيرات من النساء الصالحات للنسك والعبادة وتشتهر بينهن رابعة العدوية البصرية المتصوفة ، ولها فى الحب الإلهى الصوفى الذى يتجرد من كل حِسٍّ ومادة أشعار رائعة : وهى تعد — بحق — بين مؤسسى التصوف الإسلامى .

وتشتهر كثيرات بالبلدان الإسلامية فى تعمقهن بالعلوم المختلفة ، وفى الجزء الثامن من كتاب الذيل والتكملة لعبد الملك المراكشى ثبت طويل بالنساء العالمات فى الأندلس والمغرب ، وهن موزعات على بيوت الحكام فى الأندلس والدول المغربية المتعاقبة ، وعلى بيوت الوزراء والعلماء ، وعلى عامة الشعبين الأندلسى والمغربى . ومنهن من كانت تؤخذ عنهن القراءات السبع وقراءة ورش المصرى والتفسير والحديث النبوى والفقه والعربية واللغة والعروض وكتب الأدب المشهورة مثل كتاب الكامل للمبرد وكتاب الأمالى لأبى على القالى . ومنهن من كانت تنشر المذهب الأشعرى فى نساء مدينتها . واشتهرت — منذ القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى — طبيبات أندلسيات حاذقات وأخذ الطبَّ عنهن مغربيات بارعات . وتشتهر كثيرات من النساء المسلمات — على مر القرون — بأنهن كنَّ زاهدات عابدات لربهن متبتلات ، ويشهد ابن عربى المتصوف الأندلسى بأن الذى دفعه إلى التصوف زوجته مريم بما كان يشهد من ورعها ويسمعه من مواعظها وأيضا صوفية قرطبية هى نونة فاطمة ، لزمها سنتين تلميذا ومريدا . وتشتهر صوفية تونسية من تلامذة أبى الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الصوفية المشهورة تسمىَّ عائشة المنوبية وتلقب بلقب للاَّ ولها فى تونس زاوية كبيرة . ويتناثر فى البلاد الإسلامية لهؤلاء الناسكات زوايا كثيرة ومساجد مثل مسجد السيدة زينب فى القاهرة . وناهيك بمشاركة المرأة السودانية فى انتشار التصوف فى بلدان السودان ، وكانت تحضر حلقات

الذكر الصوفى ، وكثيرا ما كانت تقف منشدة ، والرجال فى الصفين المتقابلين يذكرون الله خاشعين على إنشادها . وفى كل أنحاء المغرب وموريتانيا كان النساء هن اللائى ينهضن بمرحلة التعليم الأولى — فكن يعلمن البنات والأولاد الصغار حتى سن الثانية عشرة الكتابة والقراءة ويحفظنهم بعض سور القرآن الكريم ويعلمنهم الحساب وبعض مبادىء العلوم الضرورية .

ومع هذه الصلات الحميمة بين الإسلام والعلم التى وثَّقها القرآن الكريم والسنة النبوية والتى أحالت العالم الإسلامى إلى عالم علم ونور نرى بعض المثقفين عندنا يقرءون ما حدث فى الغرب بالقرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد من معارضة الكنيسة المسيحية للعلم الغربى الحديث ووقوفها ضد العلماء الغربيين وإعلانها حربا شعواء عليهم على نحو ما صنعت بالعالم الإيطالى جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢ م) عالم الفلك والرياضيات حين أعلن كروية الأرض وأنها تدور حول الشمس إذ قدمته إلى المحاكمة وعذبته ألوانا مختلفة من العذاب ، حتى اضطرَّ مرغما إلى إعلان تراجعه عن آرائه . ولما قرأوا ذلك وما يماثله عن الكنيسة المسيحية فى القرنين المذكورين تبادر إليهم أن شيئا مما يماثل ذلك حدث بين الإسلام والعلم ، وهو خطأ شديد إذ لم يحدث بين الإسلام والعلم أى قطيعة فى يوم من الأيام ، فقد كانا دائما متعانقين ، مما دفع المسلمين إلى شغفهم الشديد بالعلم ذكورا وإناثا فى كل العصور الماضية واستحداثهم نهضتهم العلمية التى تحدثنا عنها ، والتى ظلت تقود العالم ستة قرون متعاقبة .

وكما قلنا مرارا إن دين الإسلام الذى اختاره الله لإسعاد البشرية فى الدنيا والآخرة ما كان ليجعله أو شيئا منه معوقا لتمثل المسلمين للعلم ، بل لقد رأيناه يرفع العلم — كما مر بنا — فوق منزلة تسبيح الملائكة وتقديسهم لله ، ليدفع المسلمين — بقوة — إلى الشغف بالعلم ، وبالمثل دفعهم الرسول إلى هذا الشغف قائلا — كما أسلفنا — إن الملائكة لتبسط أجنحتها لطالب العلم لتقلّه كيف شاء .

وهذا الحث من الله ورسوله للمسلمين كى يندفعوا للتزود بالعلم جعلهم كلما نالوا زادا منه طلبوا مزيدا وقد أكبّوا أولا – كما ذكرنا – على الاشتغال بالعلوم الدينية ، وسرعان ما اشتغلوا بالعلوم اللغوية والعلوم الأجنبية طبا وغير طب ، وما من شك فى أن الإسلام لا يعانق ما عرفه المسلمون من العلم وفروعه فحسب ، بل إنه يعانق أيضا ما سيعرفونه من العلوم فى المستقبل ، إذ هو والعلم صِنْوان أو أخوان .

ولم أعرض علماء المسلمين الأفذاذ فى كل علم ،لأن المجلدات الضخمة لا تستطيع الإحاطة بهم ، وأنا إنما أكتب الآن نظرة عامة عن الإسلام والعلم ، وكيف أذكى الإسلام جذوة العلم عند المسلمين وكيف دفعها بقوة إلى التوهج حتى امتلأت الأرض الإسلامية نورا وضياء ، وعلوما دينية ولغوية وعلوما طبيعية وكيميائية ورياضية وطبية . وبالمثل لم أعرض لأهم ما وضعه علماء المسلمين من مؤلفات وموسوعات وآيات رائعة ثبتت على الدهر وأتاحت لنفسها الخلود على مر الزمن ، لأن ذلك يعزّ عرضه فى أى علم لكثرته المفرطة . ويكفى أن أذكر أنه وصل إلينا من التراث الإسلامى العلمى آلاف من المجلدات فى كل علم نفخر بها ، كما نفخر بواضعيها من علمائنا الأجلاء الماضين .

٧

العدل

من معانى العدل فى اللغة التسوية بين شيئين ، يقال عدل بين هذا الشئ وذاك إذا سوّى بينهما ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ثم الذين كفروا بربِّهم يعدلون﴾ أى أنهم يسوون بين ربهم وآلهتهم . ونقل القرآن لفظة العدل من هذا المعنى اللغوى إلى معنى التوسط بين الإفراط ، وهو تجاوز الحد

فى قول أو فعل ، والتفريط وهو التقصير فى هذا الحد . ويكرر الله فى القرآن أنه خلق الكون وكل موجوداته وكائناته بالعدل ، وتارة يذكره بلفظه مثل آية سورة الأنعام ﴿وتَمَّت كلمةُ ربِّك صدقا وعَدلاً﴾ وتارة ثانية يذكره بلفظ القسط مثل آية سورة الأعراف : ﴿قُل أمر ربى بالقِسْط﴾ أى العدل ، وتارة ثالثة يذكره بلفظ الحق مثل آية سورة الدخان : ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق﴾ أى بالعدل التام فى خلقهما التكوينى وفيما أودعهما من نظم تحفظهما وتصونهما ، تصون السموات وكل ما فيها من سُدُم وكواكب ونجوم ، وتصون الأرض وكل ما فيها من البشر ومن الجبال والمحيطات والبحار والأنهار ، ومن النباتات والزروع والأشجار . ويرمز الله فى القرآن للعدل بالميزان ، ويذكر أنه جعله أساس النظام الكونى جميعه ، يقول فى سورة الرحمن إنه ﴿وضع الميزان ، ألاَّ تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾ والله يقول إنه ﴿وضع الميزان﴾ أى أنه جعل العدل وأقامه قانونا عاما فى خلقه وفى الوجود كله . ويجعله قرينا للشرائع جميعا إذ يقول فى سورة الشورى : ﴿الله الذى أنزل الكتاب بالحقِّ والميزان﴾ والكتاب هنا : الكتب السماوية كما يقول فى سورة الحديد : ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبَيِّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾ والله – جلَّ شأنه – يقول إنه أنزل مع شرائع الرسل التى تهدى الناس إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة الميزان أى العدل الذى لا تصلح حياة الانسان دينا ودُنيا بدونه . وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالميزان فى آية سورة الحديد المذكورة الميزان الحقيقى ، وحمل عليه الإمام الغزالى قائلا : أتظن أن الميزان المقرون بالكتاب فى الآية هو ميزان البُرِّ والشعير والذهب والفضة ؟ أم تتوهم أنه هو الطيَّار والقبَّان (ميزانان) ما أبعد هذا الحُسبان ، وما أعظم هذا البهتان ! فاتّق الله ولا تتعسَّف فى التأويل ، واعلم يقينا أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله ومُلْكه وملكوته لتتعلم كيفية الوزن به من أنبيائه » . والغزالى لا يريد المعرفة من حيث هى ، وإنما يريد ثمرتها من العدل فى جميع الأمور ، وهو

لا يتم للمسلم إلا بعد المعرفة الشاملة لأوامر الدين ونواهيه ، وحينئذ لا يتصرف إلا بالعدل على مصابيح هادية من الدين الحنيف .

ويقول الله فى تتمة آيات سورة الرحمن : ﴿ألاَّ تطغوا فى الميزان﴾ أى لا تطغوا وتدحضوا ميزان العدل الربانى ﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ أى اجعلوا الوزن على ما يُراد له من العدل فى الكيل شراء وبيعا ، والله يكرر فى القرآن للمسلمين أن يوفّوا الكيل والوزن حتى يعطى البائع حقه دون أى نقص ، ويأخذ المشترى حقه دون أى زيادة ، كما قال عزَّ شأنه فى سورة الأنعام : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ أى العدل ، ويختتم الله آيات الميزان فى سورة الرحمن بقوله تعالى : ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالميزان فى الآية آلته الحقيقية ، وقيل بل المراد العدل كما فى قوله – عز شأنه – فى الآية الأولى ﴿وضع الميزان﴾ أى العدل ، والصيغة بذلك تنهى عن التهاون فى العدل الذى يريد الله للمسلمين أن يتمسكوا به غاية التمسك . وذهب بعض المفسرين إلى أن الميزان فى الآية ميزان العدل الإلهى يوم القيامة الذى توزن به أعمال الناس الحميدة والذميمة وزنا عادلا دون أى انتقاص أو ظلم ، وفى ذلك يقول الله – عزَّ شأنه – فى سورة الأنبياء : ﴿ونضع الموازينَ القسطَ ليوم القيامة فلا تُظْلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبَّة من خَرْدل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ . والموازين مَثَلٌ للعدل فى الجزاء الأخروى .والخردل : حبوب دقيقة مثل حب السمسم . والموازين فى الآيات تدفع المسلم إلى أن يتحرَّى فى معاملاته وفى كل شئونه العدلَ الذى لا تستقيم حياة الأمم والشعوب بدونه .

ويأمر الله أمرا عاما فى سورة النحل بالعدل ، وأول واجب على المسلم إزاء العدل أن يكون عادلا تلقاء نفسه ، فلا يعرضها للتلف أو الهلاك بل يحيطها دائما بما يحميها من الأمراض ، وإلا كان ظالما لنفسه . كما ينبغى أن يكون عادلا مع الله فى الاعتراف له بوحدانيته والايمان بشريعته وأداء فروضه الدينية وائتماره

بأوامر الشريعة وانتهائه عن نواهيها . وينبغي أن يكون عادلا فى أسرته فيؤدى للزوجة مطالبها وجميع حقوقها ، وإذا تزوج بأكثر من واحدة عدل بينهن فى المسكن والمطعم والملبس والمعاشرة والبشاشة ، ويقول الله فى سورة النساء حين أباح للرجل الزواج بأكثر من واحدة : (فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) وكتب الأستاذ عبد العزيز فهمى رئيس محكمة النقض فى سنة ١٩٣٥ – فيما أذكر – بحثا ذهب فيه إلى أن هذه الآية تحرم الزواج بأكثر من واحدة ، إذ من المستحيل – فى رأيه – أن يستطيع شخص ، تزوَّج بأكثر من واحدة أن يعدل بينهن فى كل شيء . وعلى كل حال الآية تحتم على المتزوج بأكثر من واحدة أن يعدل بينهن ، وتجعل ذلك فريضة واجبة . وكما ينبغي أن يكون عادلا مع زوجته ينبغي أن يكون عادلا مع أولاده فى المعاملة وفيما يقدم إليهم من هدايا فى أعياد ميلادهم وفى المناسبات المختلفة ، وأن لا يفضل أحدا منهم على أحد فيما يهدى إليه من عقاره أو ممتلكاته أو فيما يكتب له خاصة من ميراثه ، بل يسوِّى بينهم دائما فى كل شيء . وفى الصحيحين : البخارى ومسلم أن النعمان بن بشير الأنصارى قال : تبرَّع لى أبى بتبرع كبير ، فقالت له أمى : لا أرضى بهذا التبرع حتى تُشْهد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه أبى ليشهده على تبرعه ، فقال له : أكلَّ ولدك تبرَّعت له مثله ؟ فقال له : لا ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم ، ثم قال : إنى لا أشهد على ظلم . قال النعمان : فرجع أبى فردَّ ذلك التبرع أو تلك المنحة . ومن الحق أن إيثار بعض الأولاد على إخوتهم بفضلٍ يجرّ بين الإخوة إلى مشاكل كثيرة فضلا عن العقوق للآباء .

وكما ينبغي أن يكون المسلم عادلا فى أسرته ينبغي أن يكون عادلا مع أقاربه وجيرانه ومع الناس جميعا ، إذ العدل جوهر أساسى من جواهر الإسلام ، فينبغي أن يلتزم به المسلم فى جميع أفعاله ، وبالمثل فى جميع أقواله ، يقول

ربّ العزة فى سورة الأنعام : ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُرْبَى﴾ فينبغى أن يجعل المسلم العدل شعارا له فى جميع أقواله ، فإذا مدح شخصا لم يمدحه إلا بما هو فيه دون مبالغة ، وإذا سئل فى مشورة أجاب بنصيحة صادقة عادلة ، وإذا توسط فى صلح كان منصفا للخصمين ، وإذا باع قال الصدق فى السلعة دون مبالغة فى الثمن الذى اشتراها به ، ولا أنه أُعْطى فيها مبلغا من المال مبالغ فيه ، ورفضه ، ولا يقول قولا غير صادق ليرضى بعض أقربائه . وكما أوجب الله العدل مع الأقرباء أوجبه مع الأعداء قائلا فى سورة المائدة : ﴿ولا يجرمَّنكم شَنَآنُ قومٍ على أن لا تَعدِلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أى لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم على أن تظلموهم بل التزموا العدل معهم ، والتزموه مع كل أحد صديقا كان أو عدوا .

وليحبِّب الله الأمة الإسلامية فى العدل وأن يصدر المسلم عنه فى جميع أقواله وأفعاله قال : ﴿جعلناكم أمة وسطا﴾ أى أمة جميع أفرادها عدول يتوسطون فى كل شىء فلا يُفْرطون ولا يقصِّرون فيما يؤدون من أعمال وأقوال ، وكأنه ميثاق أقامه الله بينه وبين المسلمين أن يلتزموا العدل والتوسط دائما فى كل شىء ، ونراه فى سورة الفرقان يوصى المسلمين أن يقتصدوا فى إنفاقهم قائلا : ﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتروا﴾ والمراد بالإنفاق فى الآية الإنفاق العام على المسكن والمطعم . والإسراف : مجاوزة المعتاد فى إنفاق الناس بحيث ينفق الشخص فوق الحاجة ، والإقتار : النقص عن المعتاد من مثل الشخص فى الإنفاق . كما قال تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ولا تجعلْ يَدَك مغلولةً إلى عُنُقك ولا تَبْسُطها كل البَسْط فتقعدَ ملوما محسورا﴾ ومغلولة أى مشدودة بغُلٍّ أى قيد ﴿إلى عنقك﴾ فلا تستطيع التصرف بها والانتفاع ، وهو نهى عن الشح الشديد . ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾ أى غايته ، وهو نهى عن الإسراف الشديد . والله — بذلك — ينهى المسلمين فى إنفاقهم عن الشح

والإسراف ، وبعبارة أخرى يأمرهم بالتوسط بين هذين الطرفين المتضادين . ويقول الله إنه ينهى المسلم عن هاتين الخصلتين السيئتين حتى لا يلوم نفسه ولا يلومه أحد بشحِّه البغيض ، وحتى لا يتحسر على ضياع ماله لإسرافه الشديد .

ومع أن الله – عزَّ شأنه – حثَّ مرارا وتكرارا على بذل الأغنياء شيئا من أموالهم للأقرباء المحتاجين وللفقراء والمساكين وأبناء السبيل نراه يتلطف للمسلم الغني الكريم أن لا يسرف فى البذل لهم ، يقول فى سورة الإسراء : ﴿وآتِ ذاالقُرْبَى حقَّه والمسكينَ وابنَ السبيل ولا تبذِّرْ تبذيرا﴾ وحقوقهم جميعا إنما هى فى الزكاة والصدقة . وأوجب الله للمحتاجين من الأقرباء حقا ، دعما لأواصر الأسرة ، أما المسكين فلمساعدة أخ من المسلمين فى بؤسه ، وأما ابن السبيل المسافر المارّ فلأنه غريب محتاج إلى من يقدم له الطعام ويأويه ليلا من اللصوص والوحوش . والله يأمر المنفق لماله فى هؤلاء وأمثالهم أن لايبالغ فى إنفاقه إلى حد السرف الزائد والتبذير المفرط حتى يظل للمنفق من ماله ما يكفيه حاجاته . وبالمثل يقول الله فى سورة الأنعام : (وهو الذى أنشأ جنات) أى حدائق من العنب (مَعْروشاتٍ) أى قائمة على عُمدٍ من الخشب (وغيرَ مَعْروشاتٍ) أى مفروشة فى الأرض (والنَّخلَ والزرع مختلفًا أُكُله والزيتونَ والرُّمَّانَ متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر) اى من عنبه ورطبه ورمَّانه (وآتوا حقه) أى زكاته (يوم حصاده) أى يوم قطع الثمر من شجره والحبِّ من أصوله . ثم يقول الله (ولاتسرفوا) فى زكاة الثمار والزروع فتؤدوا فيهما أكثر مما يجب عليكم حتى لا تقعوا مستقبلا فى ضيق وضنك وتتحسَّروا على ما ضاع من أموالكم .

وكما أمر الله المسلمين بالاقتصاد العادل فى الإنفاق أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاقتصاد العادل فى عبادة الله والنسك له ، وكان لا يزال ينهى

عن الإسراف فى العبادة ، ومن قوله لمن يتشدد فى الدين ويشقّ على نفسه : « إن هذا الدين متين فأوغلْ فيه برفق » يريد له أن يرفق بنفسه ، ويضرب له مثلا بالمُنْبَتِّ الذى أتعب بعيره فى السير حتى عَطِبَ ولم يستطع السير يقول الرسول : فيبقى الرجل وحيدًا منقطعا ، فلا أرضا قطعها ولا بعيرا أبقاه . وعلم الرسول أن عبد الله بن عمرو بن العاص يصوم طوال النهار ويصلِّى طوال الليل ، ولقيه ، فقال له : يا عبد الله بن عمرو بلغنى أنك تصوم النهار وتقوم (تصلى) الليل ، فقال له نعم ، فقال الرسول : فلا تفعل ، صُمْ وأفطر ، ونَمْ وقم (صلِّ) فإن لجسدك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزَوْرِك (زائريك) عليك حقا ، وحسبك أن تصوم فى كل شهر ثلاثة أيام ، فإن لك بكل حسنةٍ عَشْرَ أمثالها ، فإن ذلكَ صوم الشهر . وفى رواية صوم الدهر . وعن السيدة عائشة – رضى الله عنها – أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها ، فوجد عندها امرأة ، فقال لها من هذه ؟ فقالت : هذه فلانة تذكر من صلاتها (كثرة) فقال : مَهْ أى اكففْن ، عليكن بما تُطِقْن . وواضح أنه زَجر السيدة عائشة لأنها أثْنَت على المرأة بكثرة صلاتها ، وكأنه يريد أن يقول لهما عليكما من العبادة والصلاة بما تستطيعان الدوام عليه ، فقليل دائم فيهما خير من كثير قد ينقطع أو لا يدوم .

ومما حثَّ الله فيه رسوله على التزام العدل القضاءُ بين الناس والحكم فى الخصومات والمنازعات يقول – عزَّ سلطانه – فى سورة النساء : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدُّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ . والله يأمر المسلمين أن يؤدوا ما ائتمنوا عليه إلى أصحابه ومستحقيه دون أن ينقصوا منه شيئا أو ينكروه ، فإن ذلك عقابه أليم ، كما يأمرهم حين يتولون القضاء بين الناس والحكم فيهم أن يكون العدل أساس القضاء والحكم . ومعروف أن القاضى يرجع فى أحكامه إلى أدلة الشريعة الإسلامية ، وهى القرآن

الكريم فإن لم يجد فيه ما يلهمه الحكم العادل رجع إلى السنّة ، فإن لم يجد فيها ما يهديه إلى الحكم رجع إلى إجماع الأمة لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول : لا تجتمع أمتى على ضلالة ، فإن لم يجد فى الإجماع ما يرشده إلى الحكم عمد إلى الاحتهاد بعقله على ضوء تعاليم الكتاب والسنة . ومرَّ فى حديثنا عن عقلانية الإسلام ، الإلمام بالاجتهاد ، وكيف أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – اعتمده أصلا من أصول الدين الحنيف وأن خليفتيه أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب أخذا به فى بعض ما عرض لهما من الأحداث والقضايا . ومضى القضاة – بعدهما – يأخذون به فى القضايا التى لم يجدوا فيها نصا فى القرآن والسنة يهديهم إلى الحكم السديد ، وبالمثل إذا لم يجدوا فى إجماع الأمة حكما فى قضية مماثلة انعقد عليه إجماعها ، حينئذ كانوا يعمدون إلى الاجتهاد – على ضوء تعاليم القرآن والسنة – فى استنباط الحكم فيما يعرض عليهم من قضية أو نازلة مستجدة . ويشيد الرسول – صلى الله عليه وسلم – مرارا وتكرارا بالقضاة والحكام العدول ، ومن قوله : « إن المقسطين (أى العادلين) فى أحكامهم بين المسلمين عند الله يوم القيامة على منابر من نور » .

وكما يأمر الله القضاة والحكام بتحرِّى العدل فى الخصومات بين الناس يأمر بالمثل الشهود فيها قائلا فى آية ثانية بسورة النساء : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقسط شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًّا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تَلْووا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ . والله – عزَّ وجَلَّ – يطلب فى الآية من المؤمنين أن يكونوا « قوامين بالقسط » أى العدل فى الحكم ﴿شهداءَ لله﴾ أى اشهدوا لوجه الله الشهادة الصادقة ﴿ولو على أنفسكم﴾ أى وإن كان فى الشهادة ضرر يعود عليكم فإن الله يطلب منكم فى الشهادة

أن تقولوا الحق مهما أضرَّ بكم ، إذ واجبكم أن تُقِرُّوا به ولا تخفوه مهما كان شاقا عليكم ، ومهما أنزل بكم من الضرر والأذى . ويجب أن تصدقوا وتقولوا الحق أيضا على الوالدين دون مجاملة لهما مهما كان فيه ضرر لهما أو لأحدهما . وبالمثل يجب أن تقولوا الحق وتعلنوه على الأقربين . إذْ أبطل الإسلام فى ذلك كله الحمية والعصبية للنفس وللوالدين والأقربين ، وأصبحت العصبية والحمية للعدل ورد الحقوق إلى أصحابها المظلومين . ويقول – جَلَّ شأنه – ﴿إن يكن﴾ المشهود له من الوالدين والأقربين « غنيا » فلا يُراعى فى الشهادة لغناه ﴿أو فقيرا﴾ فلا يشفق عليه شاهد لفقره . ﴿فالله أولى بهما ﴾ أى يتولاهما ، إذ هو أولى بهما من الشاهد وأعلم بما فيه صلاحهما ، فلا يتأثر الشاهد بما لهما من الغنى والفقر ، وعليه أن يتمسك دائما بالعدل والحق ﴿فلا تتبعوا الهوى﴾ والحمية والعصبية ﴿أن تعدلوا﴾ أى لتعدلوا وتلتزموا دائما بالعدل . ويتوعد الله مَنْ يحرِّفون الشهادة أو يخفونها قائلا : ﴿وإنْ تَلْووا﴾ فى الشهادة أى تحرِّفوها حتى لا يتمكن صاحب الحق من أخذ حقه ﴿أو تُعْرِضوا﴾ أى تكتموا الشهادة ولا تؤدوها ، وكتمانها إثم كبير كما قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثمٌ قلبه﴾ وهو تحذير ربانى شديد من كتمان الشهادة إخفاء للحق . ويعقِّب الله هنا على اللىّ فى الشهادة والتحريف وعلى كتمانهما بقوله مهددا متوعدا : ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ .

وللخليفة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – رسالة مهمة فى القضاء وما ينبغى أن يأخذ به القاضى نفسه من العدل فى سلوكه مع الناس والمتخاصمين ، والقواعد التى يتمسك بها ويتبعها فى الحكم ، وهو يستهلها بقوله : « أما بعد فإن القضاء فريضةٌ محكمة وسُنَّة متَّبعة » فرضها الدين وسنَّها

لمصلحة الأمة وأفرادها وما ينشأ بينهم من منازعات وخصومات . ويقول عمر للقاضى : « فافهمْ إذا أُدْلِىَ إليك » أى إذا أدلى المدعى فى القضية – والمدعَى عليه – بحجة فحاول أن تفهم وتتأنَّى فى فهم الحجة حتى تتبين الحق عن بصيرة وإدراك سليم . ثم يقول : « آسِ بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حَيْفك ولا يخاف ضعيف من جَوْرك » . وعمر يقول للقاضى : سوِّ بين الناس فى مجلسك وحديثك وبِشْر وجهك ، حتى لا يطمع خصم شريف فى أنك ستؤثره على خصمه وتظلمه له من أجل شرفه وحتى لا يخاف ضعيف من ظلمك له لضعفه ، واجعل العدل فى معاملة الشريف والضعيف المشروف ديدنك .

ثم يضع عمر للقاضى قاعدتين أساسيتين فى تقاضى الخصوم أمامه ينبغى عليه أن يتمسك بهما غاية التمسك ، وهما : « البينة على من ادَّعى واليمين على من أنكر » فالمدَّعِى ينبغى أن يقدم ما يثبت دعواه من الشهود على ما يدَّعيه من الحق . فإن لم يستطع وأنكر المتهم الحق الذى يطالبه به صاحبه طلب منه القاضى أن يشفع إنكاره بالحلف والقسم بربه إنه يقول الحق ولا يخفى منه شيئا . ويقول عمر للقاضى : إذا ارتضى الخصمان الصلح فاقبله منهما ، إذ الصلح يفضى دائما إلى الخير إلا إن أفضى الصلح إلى تحريم حلال فإنه لا يُقبَل ، وبالمثل إن أحل حراما لا يقبل . ويفتح عمر الأبواب واسعة أمام القاضى ليراجع أحكامه ، فإن رأى أنه أخطأ فى حكم وجب عليه أن يعلن ذلك للخصوم أو الخصمين » ويرجع عنه ، فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل .

ويضع عمر للقاضى – أمام عينيه – الأصول الشرعية التى يحتكم إليها ويصدر عنها فى أحكامه ، وهى القرآن والسنة ، فإن لم يجد فيهما ما يضىء له مسلكه إلى الحكم السديد اجتهد برأيه ، وحاول أن يقيس حكمه على أشباهٍ له ونظائر فى الشريعة . ويقول عمر للقاضى إذا طلب المدعى مهلة ليُحْضر الشهود فأعطها له ، فإن أحضرهم وشهدوا له وصحت شهادتهم أخذت له

بحقه ، وإلا خسر القضية وسقطت الدعوى . ويقول عمر قاعدة مقررة فى الشهود ، وهى أن المسلمين عدول تقبل شهادة بعضهم على بعض إلا شهادة من جُلد – عقابا له – فى حدٍّ شرعى من الحدود التى أوجبها الإسلام فى الجنايات أو ارتكاب بعض المحرمات ، فإنها لا تُقبل . ومثلها شهادة الزور ، فإنها تُرْفَضُ رفضا باتًا ، ومثلهما شهادة القريب لما قد تحمل صاحبها على مجاملة قريبه فيها . وينبغى أن لا يستشهد المدعى بقريب له نفيا للظن والريبة . ويأمر عمر القاضى أخيرا أن لا يؤذى الخصوم ولا يتنكر لأحد فيهم ، بل يكون رفيقا بهم جميعا . ولا ريب فى أن هذه الرسالة لعمر فى القضاء تَعَدّ وثيقة مهمة فى العهد الإسلامى الأول فى عدالة القضاء وكيف أنها قامت على قواعد محكمة .

ومن قديم كانت مشكلة الأغنياء والفقراء تشغل الناس فى المجتمعات ، وكانوا دائما يطمحون إلى إيجاد حل دقيق لها حتى جاء الإسلام ، وأوجد لها الله – جلَّ وعزَّ – حلا حاسما يرضى الطبقات الغنية والفقيرة جميعا بحيث لا يجوع فى المجتمعات الإسلامية أحد ، وهو فرض الزكاة على الأغنياء والدعوة المستمرة فى القرآن للصدقة ، وتسمية الله لها تشريفا قرضا له قائلا : ﴿مَنْ ذا الذى يُقْرِض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ وبذلك لم يجعل الله صدقة الأغنياء تنازلا عن جزء من أموالهم للفقراء فحسب ، بل جعلها قرضا له ، فالمتصدق عن ماله إنما يقرض ربَّه ما يتصدق به لإخوانه فى مجتمعه من الفقراء .

وبالزكاة لم يعد العدل الاجتماعى مثلا أعلى من المثل التى يتمناها الإنسان ويتحرق شوقا إلى تحقيقها ، بل أصبح فى الإسلام حقيقة واقعة كبرى إذ فُرض على أغنياء المسلمين حق معلوم فى أموالهم للفقراء ، وأصبحوا كالشركاء لهم فى أموالهم ، ينتظرون سنويا ومن حين إلى حين ما يؤدونه لهم من أموالهم زكاة ، وهو ليس منحة من أغنياء المسلمين لفقرائهم ولا عطية إنما هو حق من حقوقهم كما يقول الله فى القرآن ، يعصمهم من استعلاء الأغنياء عليهم وتحكمهم فيهم ، فضلا عن إذلالهم . وإنه ليشعر الأغنياء أنهم إخوة للفقراء يعينون المحتاج منهم

ويغيثون الملهوف ، ويقدمون الطعام - مع حبه - للفقراء والمساكين إيثارا لهم على أنفسهم .

وهذا العدل الاجتماعى الذى أقامه الإسلام جعله - ركنا أساسيا من أركان الإسلام الخمسة ، فهو عبادة مثل الصلاة ، والله - جَلَّ شأنه - يقرنه بها دائما فى القرآن ، ولذلك حين نَكَلَ بعض العرب عن القيام به وأدائه بعد انتقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الرفيق الأعلى لم يتردد خليفته أبو بكر الصديق فى حربهم وردهم إلى الإسلام وأركانه ، وهى مفخرة باقية له على مر الزمن . ولم يحدث - بعده إلى اليوم - أن ثارت جماعة إسلامية على هذا الركن العظيم من أركان الإسلام إذ وجدوه دائما يعصم فقراء الأمة ومساكينها من الغضب على الأغنياء واستئثارهم بالمال من دونهم . ومن قديم يقدم أغنياء الأمة للمحتاجين منها أعمالا خيرية كثيرة ، وليس ذلك فحسب فإنهم يقفون كثيرا من عقاراتهم لأعمال البر ، وهو ما جعل العالم الإسلامى - إلى اليوم - يتميز بوزارات فى شعوبه خاصة بهذه الأوقاف الكثيرة تديرها وتوزع إنتاجها توزيعا خيريا سليما .

وقد بَنىَ الله ورسوله هذا العدل الاجتماعى الإلهى العظيم فى الأمة الإسلامية وأسَّساه على قيام البر والتعاطف والتعاون بين أفراد الأمة من أغنياء يمدون الفقراء بقوتهم اليومى ، وأرضى ذلك الطبقات البائسة فى ديارنا على مر العصور الإسلامية . وإذا قارنا بين هذا العدل الربانى إلى ما أراد زعماء الشيوعية لها من اقامة العدل بين الأغنياء والفقراء ، فإن العدل الربانى الإسلامى يحترم حرية الإنسان فى ماله وتصريف حياته ، فماله يظل ملكاً له ويتنازل سنويا عن جزء منه زكاة لأخيه الفقير عن رضا وعن رغبة حقيقية فى إرضاء الله ، وما يفتح من أبواب جزاءاته الكبرى للمسلم المزكّى عن ماله والمتصدق به من نحو قوله تعالى : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله﴾ ومرضاته حربا ضد الأعداء وسلما لإخوانهم الفقراء (كمثل حبَّةٍ أنْبتتْ سبع سنابلَ فى كل سنبلة مائة حبة

والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) وهو وعدٌ ربَّانى عظيم يصوِّر الله فيه ثواب ما يعطيه للمزكى عن ماله والمتصدق بجزء منه بحبةٍ زُرعت فى أرض طيبة فأنْبتتْ سبع ﴿سنابل فى كل سنبلة مائة حبة﴾ أى أن الله يضاعف جزاء المزكِّى والمتصدق للمحتاجين إلىَ سبعمائة ضعف . فأى مسلم يسمع هذا الجزاء الربَّانىّ للزكاة والصدقة ولا يؤديهما راضيا ابتغاء وجه الله وانتظارا لثوابه الدنيوى والأخروى .

وهو فرق أساسى بين العدل الاجتماعى الإسلامى والعدل الذى عملت الشيوعية الروسية سبعين عاما أو تزيد على تثبيته ونشره . وكان يحمل منذ ظهوره والدعوة له إخفاقه فى تطبيقه لأسباب كثيرة ، منها أنه يقوم على التسلط والقهر وحرمان الإنسان من حريته وماله وخضوعه لرقابة مستمرة فى كل تصرفاته وفى إنتاجه المادى والفكرى . وبذلك يفقد الإنسان كل ما أعطاه الله من نِعَمٍ فى حياته ، مع أخذه بمادية مفرطة ، وبإلحاد متمرِّدٍ على الله ودياناته السماوية عامة .

وكان بعض هذه الأسباب كفيلا بانهيار العدل الشيوعى مبكرا وبخاصة فقد الإنسان لحريته ، وأهم منه فقده للدين وجحوده له جحودا تاما ، ومن الثابت ثبوتا لا يستطيع أحد إنكاره أن الإنسان محتاج إلى الإيمان بربه الذى يدبِّر شئونه ويسمو به إلى عمل الخير ويبعده عن الشر وعن الموبقات ويهيىء له حياة طيبة راضية . وليس فى العدل الاجتماعى الإسلامى أى شىء من المساوىء الشيوعية المهلكة فليس فيه قهر ولا تسلط على إرادة الإنسان وحريته ، بل حريته مكفولة له ، إلى أقصى حد سواء فى الفكر الخالص أو فى التصرفات الشخصية والمالية أو فى الحياة وشئونها المختلفة . والإنسان فى العدل الاجتماعى الإسلامى لا يفقد جهده ولا تفوقه ولا رأس ماله وممتلكاته . وأهم من ذلك كله أن العدل الاجتماعى الإسلامى عدل ربانى وضعه مدير

الكون ورسوله ، وهو لذلك عدل سديد فى الشريعة الإسلامية وعقيدتها الروحية ، والإسلام يعدُّه – كما قلت فيما أسلفت – عبادة كعبادة الصلاة والصيام والحج ، عبادة تملأ قلوب المسلمين أمنا ورضا وطمأنينة .

٨

المساواة

لعل أول ما يلاحظ من المساواة بين أفراد المسلمين جميعا مساواتهم فى الواجبات والحقوق العامة ومساواتهم أمام الله ، فلا يستطيع أحد من المسلمين أن يقول لغيره منهم إنه أقرب منه إلى الله ، إذ جميع المسلمين متساوون أمام ربهم فى إيمانهم بوحدانيته وشريعته . وقد ألغى الله فى الإسلام الكهنوت وقيام طائفة مقدسة بينه وبين البشر ، فليس فى الإسلام رجال كهنوت دينى من قساوسة ورهبان وأساقفة يدورون فى فلك رئيس دينى لهم . والله فى القرآن يكرر مرارا أنه يقبل التوبة من عباده المسلمين ويمنح لهم الغفران دون وسطاء أو شفعاء ، وإنه ليبسط يده لهم – ليلا ونهاراً – ليقبل من المذنب المسيىء توبته ، وليغفر له ما تقدم من ذنبه مهما كان كبيرا . وفى مسند ابن حنبل عن أنس بن مالك قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مخاطبا المسلمين : « والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم » .

وعلى هذا النحو قرر الإسلام مبدأ المساواة الدينية الكاملة بين أفراد المسلمين جميعا أمام الله ، ومن مظاهرها فى أداء الفرائض الدينية أن المسلمين يؤدون صلاة الجماعة صفوفا يقف فيها غنيهم بجانب فقيرهم وقويهم بجانب ضعيفهم ، لا فرق أى فرق بين مسلم ومسلم فى الصلاة تقديسا لله ، يكبِّرون معا ويركعون ويسجدون .

ولا تفاوت أى تفاوت بين مصلٍّ وأخيه . ويجتمع المسلمون من أطراف العالم فى صعيد واحد هو بيت الله بمكة ليؤدوا فريضة الحج وقد خلع كل منهم ملابسه ، ولبسوا جميعا مكانها لباسا واحدا هو لباس الإحرام الذى يعقد المساواة بينهم فى أروع هيئة وصورة .

ويدعو الله فى القرآن المسلمين والبشر جميعا أن يشعر كل منهم بالمساواة التامة بينه وبين إخوانه من الناس ، ومن قوله فى ذلك بسورة النساء : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً﴾ . والله يقول إن الناس جميعا خُلقوا من أصل واحد وأب واحد هو آدم ، وينبغى أن يستشعروا ذلك دائما ، فهم مشتركون فى الأصل والنسب والأبوة ، ولا فارق أى فارق يميز مسلما عن مسلم . فهم جميعا متساوون ، وفى ذلك يؤثر عن الرسول قوله : « المسلمون سواسية كأسنان المشط » ويقول الله تعالى فى سورة الحجرات : ﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ والله يقول إنه خلق الناس من أب واحد هو آدم وأم واحدة هى حواء وإنه جعل الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا لاليتناكروا ويتحاربوا ويتعادوا . وأيضا لا ليتفاخروا وليتطاول بعضهم على بعض ، فإن ذلك مخالف لما خلقناكم له ولفطرتكم التى أردناها لكم ، إذ أردنا لكم أن يعمَّ بينكم شعور بالأخوة لانتمائكم إلى رجل واحد وأم واحدة لا أن يقوم بين الشعوب والقبائل والأفراد هذا التنافس ، وكل شعب بل كل فرد يريد أن يستعلى على غيره من الشعوب والأفراد مما يخالف الأخوة وينقضها ويبعدكم عن الحياة الآمنة المطمئنة . وليس التفاضل الحميد بالآباء والأنساب ، وإنما بما جاء به الإسلام من الإيمان بالله ورسوله وتقوى الله حق تقواه ، فهى مردُّ التفاضل الحقيقى ، وهو تفاضل عند الله وحده لا عند الناس .

وكما جعل الله مردَّ التفاضل بين المسلمين والبشر إلى التقوى جعلها الرسول

– صلى الله عليه وسلم – مردَّ التفاضل بين العرب وغير العرب ، إذ يقول فى خطبته بحجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » . وبذلك سوَّى بين العرب والعجم من المسلمين . وردَّ التفاضل بينهم .. كما ردته الآية السابقة .. إلى التقوى . وفى رواية ثانية لخطبته أنه قال : « لا فضل لأسود على أحمر (أى أبيض) ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى » . وبذلك جعل الرسول بين المسلمين قانونا إسلاميا خالدا هو أن المسلمين جميعا عربا وغير عرب ، وسودا وبيضا متساوون ولا يتفاضلون إلا بالتقوى . وبذلك أُلغِىَ نهائيا فى الإسلام التفاضل القبلى والقومى والجنسى وبعبارة أخرى أُلغيت كل صور التفاضل ماعدا التفاضل بفضيلة الإسلام الجديدة ، وهى تقوى الله حق تقواه .

ويضرب الرسول – صلَّى الله عليه وسلم – أكبر مثل فى المساواة بينه وبين الصحابة إذ كان يأبى إباء شديدا أن يعظموه ، وحدث أن خرج على جماعة منهم فقاموا له تجلَّة ، فنهاهم بشدة عن القيام له . قائلا لهم : « لا تقوموا لى كما يقوم الأعاجم يعظِّم بعضهم بعضا » ثم قال لهم : « إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » ! فهو عبد من عباد الله لا يتميز عنهم فى شىء . ويروى أن رجلا قام بين يديه ، فأخذته رعدة شديدة هيبة له ، فبادره – بلطفه – قائلا له : هَوِّنْ عليك يا أخى فإنى لست بملك ولا جبار ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَديد بمكة . والقديد من اللحم ما قُطع طولا وملح وجفِّف فى الشمس . يريد أنه لا يتميز عنه ، فسُرِّىَ عن الرجل ، وزالت عنه الهيبة الشديدة والرعدة ، وأَنس إلى الرسول . ونطق له بما يريد منه .

وكان – صلَّى الله عليه وسلم – يجالس أصحابه من الفقراء والمساكين ويعطف عليهم ويؤاكلهم ويعود مرضاهم ، وكان يمشى مع الأمة والأرملة

والمسكين إلى أى مكان فى المدينة ليقضى لكل منهم حاجته . وكان يجلس مع أصحابه مختلطا بهم ، وحيثما انتهى به مكان الجلوس فى مجلس جلس فيه غير متميز عنهم . وكانت بيوته من اللَّبِن (حجارة الطين) مثله مثل صحابته ، وكان فراشه مثل فراشهم بسيطا ، وكان لا يترفع عن أى عمل من أعمال البيت تقوم به النساء وخادمه مالك بن أنس ، فكان يخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويكنس بيته ، ويحلب شاته ، ويعقل بعيره .

وكان يأكل مع خادمه أنس بن مالك ليقتدى به أصحابه وأنه لا فرق بين خادم ومخدوم ولا بين سيد ومسود . ومن آدابه أنه كان لا يقطع الكلام على أحد من أصحابه ، بل ينتظر منصتا له مصغيا حتى يتم كلامه . وتقول السيدة عائشة عنه : « ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال لبَّيك » . ودائما كان يعدُّ نفسه مثل واحد من أصحابه دون أى فارق ، ولذلك كان مكانه فى مقدمة صفوفهم كلما اشتركوا فى حرب ، وبالمثل حين ينون مسجدا ، فإنه كان يشترك مع أصحابه فى بنائه ، على نحو ما صنع فى بناء أول مسجد بالمدينة إذ كان يشترك مع بعض أصحابه فى نقل حجارة اللَّبن المضروبة من الطين . وحين اجتمع الصحابة لحفر الخندق فى غزوة الأحزاب المشهورة تقدم الصفوف يحفر فيه مع أصحابه ، واعترضتهم فى الحفر صخرة صلبة ، فأخذ المعول وضربها به ضربة شديدة ، فانصدعت ، وضربها ثانية وثالثة ، فتقطعت وتمَّ الحفر . ويُرْوَى أنه شاع فى المدينة ذات ليلة أن غارة للمشركين ألمت بضواحيها ، ففزع الناس وخرجوا يتبينون الخبر . وإذا الرسول – صلى الله عليه وسلم – يركب فرسا دون سرج للسرعة وقد تقلد سيفا ، ويركض الفرس إلى ضواحى المدينة ولا يجد غارة ولا ما يشبه الغارة . ويعود مطمئنا ، فلا غارة ولا مغيرين ، ويصيح فى الناس ، لن تُراعوا ، لن تُراعوا .

ومما يروى عنه أنه كان فى سفر مع بعض أصحابه ، فقال لهم : أعدوا لنا شاة للطعام . فقال صحابىٌّ : يا رسول الله علىَّ ذَبْحُها ، وقال ثان : يا رسول الله علىَّ سلخها ، وقال ثالث : يا رسول الله علىَّ طبخها . فقال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلم - وعلىَّ جمع الحطب والوقود ، فقالوا يا رسول الله نكفيك العمل ، فقال لهم : قد علمت أنكم تكفونى ، ولكنى أكره أن أتميَّز عليكم . ومن إحساس الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالمساواة التامة بينه وبين أصحابه أن كان يطلب من الصحابى الذى يظن أنه غضب لحركة له خفيفة دفعه بها عن نفسه أن يَقْتصَّ منه ويصنع به نفس الحركة تطييبا لخاطره ، ويذكر من ذلك أن صحابيا أكبَّ عليه ، وهو يقسم مالا أمامه ، فغمزه بطرف عرجون (سباطة) من النخل كان فى يده ليكفَّ عن إكبابه ويتركه ليؤدى ما يريد من قسمة المال . ولاحظ - صلى الله عليه وسلم - على الصحابى شيئا من الاستياء . فقال له : تعالَ فاستقِدْ أى اصنع بى كما صنعت بك ، فاستحيى الرجل ، وقال مبتسما لرسول الله : لقد عفوت يا رسول الله . ويُرْوَى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خطب فى خلافته قائلا : من ظلمه أميره فليرفع ذلك إلىَّ أُقِيده (أقتصُّ له) منه ، فقام عمرو بن العاص والى مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين لئن أدَّب رجل منا رجلا من أهل رعيته لتقصنَّه منه ؟ قال عمر : كيف لا أُقصنَّه منه ، وقد رأيت رسول الله - صلَّى الله عليه وسلم - يَقُصّ من نفسه .

ويوثق الله ورسوله هذه المساواة بين المسلمين فيجعلانها أخوة وثيقة بينهم ، يقول الله فى سورة الحجرات : (إنما المؤمنون إخوة) أى إن جميع المسلمين إخوة فى الدين ، وهى أخوة توجب للمسلم على أخيه المسلم حقوقا كحقوق الأخوة الحقيقية فى النسب ، وهو نسب روحى أقوى من نسب القرابة ، لأنها جسم ودم ، بينما الأخوة فى الإسلام روح ومودة وأن يحب المسلم - كما قال الرسول - لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه ، فلا يظلمه ولا يسقط له حقا من حقوقه ، بل يجعله كنفسه ، وكما ينفع نفسه ينفعه . وإذا طلب إليه حاجة أدَّاها

ووفَّاها ، وإذا وقع فى محنة أسرعَ إليه ، فخلَّصه من شباكها العسرة . ويقول الرسول - صلَّى الله عليه وسلم - حاثًّا على ذلك : « مَنْ فَرَّج عن مسلم كُرْبة من كرب الدنيا فُرج الله عنه بها كربة من كُرَب يوم القيامة » . ومن حقوق الأخوة الإسلامية التى شدد الرسول عليها سَتْرُ المسلم لعيوب أخيه المسلم وما قد يقع فيه من آثام وذنوب ، يقول ناصحا للمسلمين : « من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » . وكان ما يزال ينصح المسلمين بأن تسود بينهم المحبة والمودة ، حتى يصبحوا - مهما كثرت جموعهم - وكأنهم أسرة واحدة ، بل إنه ليقول فى حديثَ بصحيح مسلم : مثل المؤمنين فى توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى » وهو مثل رائع ، إذ جعل المسلمين - فى جميع البقاع والأماكن - كأنهم جسد واحد لما يجمعهم من المودة ورحمة بعضهم لبعض وتعاطفهم ، حتى إذا اشتكى عضو منهم ألما تداعت الأعضاء فى هذا الجسد لعونه وإنقاذه من ألمه ، ويمثلها الرسول - صلَّى الله عليه وسلم - ساهرة تألم نفس ألمه حتى كأنما تصيبها حمى قلقا وشفقة عليه .

وأعظم أخوة مواسية حدثت فى الإسلام أخوة الأنصار للمهاجرين الأولين وقد عقدها الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد قدومه إلى المدينة وبعد بنائه لمسجده بين تسعين رجلا : خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار على المواساة والحق والتوارث ، فكانوا يتوارثون دون القرابات حتى نزلتْ آية سورة الأنفال : ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾ فأبطلتْ ما فى هذه المؤاخاة من التوارث . وأبقت على ما فرضته من الحق والمواساة . وامتدح الله الأنصار لهذه المؤاخاة الكريمة قائلا فى سورة الحشر : ﴿والذين تبوَّءوا الدارَ والإيمانَ من قبلهم﴾ أى : الأنصار لذين سكنوا المدينة وأخلصوا بها الإيمان من قبل المهاجرين ، فهى دارهم . وقرنها الله بالإيمان للثناء عليها وعلى أهلها من الأنصار . ويخبر عن فضلهم بقوله : ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ ويواسونهم بأموالهم من النخيل وغيره ﴿ولا يجدون فى صدورهم

حاجة﴾ أى مأربا أو رغبة ﴿مما أوتوا﴾ أى المهاجرون من مغانم بنى النضير حين أجلاهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن المدينة ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة﴾ أى حاجة شديدة إلى ما آثروهم به .

وهذه الفضائل الرفيعة من المساواة المطلقة بين الأنصار وبين المهاجرين التى دعاهم إليها رب العزة ورسوله وما رافقها من المواساة والإيثار لم تشع بين الأنصار وحدهم ، فقد كانت أخلاقا مُثْلَى حثَّ عليها الرسول أصحابه ، واستشعرها كثير من المسلمين الذين فتحوا العالم القديم من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلنطى ، وأقاموا الدولة الإسلامية الكبرى . ومن خير ما يصور ذلك قصة عكرمة بن أبى جهل وصاحبيه يوم اليرموك ، إذ ذكر حذيفة العدوى أنه انطلق بماء يحمله إلى ابن عم له تيقَّن أنه بين شهداء المعركة ، وعثر عليه ، فقال له أسقيك ماء ، فأشار إليه برأسه يطلبه ، وسمع ابنُ عمه عكرمةَ بن أبى جهل يقول آه آه مما تثقله الجراح ، فأشار إليه أن ينطلق بالماء إلى عكرمة ، فقال له أسقيك ، وسمع عكرمة آخر يقول آه آه ، فأشار إليه أن يقدم له الماء ، فجاء إليه ، فإذا هو قد مات . ورجع بالماء إلى عكرمة ، فوجده قد مات ، فرجع إلى ابن عمه ، فإذا هو قد مات . فماتوا جميعا ولم يشرب الماء أحد منهم ، وهى قصة رائعة من الإيثار .

ومن المبادىء الأساسية التى ثبَّتها الرسول – بقوة – بين المسلمين المساواة فى اقامة الحدود وهى العقوبات المقدرة للجنايات من مثل القتل والسرقة وارتكاب الفواحش المحرمة ، وقد نهى فيها نهيا باتا عن الشفاعة لأحد مهما يكن جاهه أو ثراؤه . من ذلك حديث فى الصحيحين أن قريشا اهتمت لامرأة مخزومية ثبتت عليها سرقة ، وخشيت قريش أن يقيم الرسول – صلى الله عليه وسلم – الحدَّ عليها ويقطع يدها طبقا للحد الشرعى . وتساءل كثيرون من قريش من يجترىء على رسول الله فى الشفاعة لها ، وأجمعوا على أن أحدًا لا يستطيع ذلك سوى أسامة بن زيد محبوب رسول الله ، فكلَّم

فيها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له مستنكرا شفاعته أتشفع فى حَدٍّ من حدود الله ؟! ثم قام فخطب فى الصحابة قائلا : « يا أيها الناس إنما أهلك مَنْ قبلكم أنهم كانوا إذا سَرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحدَّ ، وايْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

ولعل فيما أسلفت ما يدل بوضوح على أن المساواة المطلقة كانت دائما قوام المجتمعات الاسلامية . إذ جعلها الإسلام قانونا اجتماعيا ملزما لقيام أى مجتمع إنسانى ملغيا ما بين الشعوب من الاختلاف فى الجنس واللون واللغات وما قد يكون بين الأفراد من الثراء والشرف والاعتداد بالآباء . وهى ميزة كبرى من ميزات المجتمعات الإسلامية أن كانت مجتمعات لا طبقية . إذ لم يحدث لأى مجتمع فيها أن استحال مجتمعا طبقيا ، فيه طبقات متعددة . وعلى ذلك مضى الخلفاء والحكام فلم يشعر أحد منهم أنه من طبقة فوق الشعب أو أعلى منه . وكان لذلك أثر بعيد فى الشعوب التى دخلت فى الإسلام ، فأنه ألغى ما التقى به من طبقات فى بعض تلك الشعوب مثل الشعب الإيرانى وكان مكوّنا من أربع طبقات : طبقة رجال الدين ، وطبقة المحاربين ، وطبقة الكتاب والمثقفين ، وطبقة الزراع والصناع ، سوى طبقة عليا منها الوزير ، ورئيس الموابذة : رجال الدين ، ورئيس الكتاب . كل هذه الطبقات ألغيت فى إيران الإسلامية ، كما ألغيت فى بلاد الهند الإسلامية طبقةُ البراهمة وهم طبقة الكهنوت أو رجال الدين عند الهندوس ، وأيضا طبقة المنبوذين وهم عامة الشعب الهندوسى . فالناس جميعا فى أى مجتمع إسلامى متساوون اجتماعيا لا يتميز غنى على فقير ولا قوى على ضعيف من حيث القيمة الإنسانية العامة . والقاضى يقف أمامه الخليفة والحاكم كما يقف أمامه أى فرد عادى من الشعب ، بينما كان للأشراف فى مجتمعات أوربا الإقطاعية محاكم خاصة بهم . حتى لا يقفوا مع أفراد الشعب ويتساووا بهم ،

وكان الأشراف والنبلاء فى تلك المجتمعات يؤلفون طبقة عليا حول الملوك ويتلقبون ألقابا خاصة بهم مثل كونت ودوق وبارون ، والإسلام لم يعرف شيئا من ذلك كله . فقد احترم آدمية جميع المسلمين والبشر فى مجتمعاته وجعلهم متساوين فى جميع الحقوق والواجبات الدينية والاجتماعية والخلقية ، ولا فضل لأحد أى فضل إلا بالتقوى التى يقدمها لربه .

٩

التسامح

التسامح : التساهل فى كل شيىء سواء فى المعاملة أو فى الحقوق ، وفى الحديث : أحبُّ الأديان إلى الله الحنيفية السمحة . والحنيفية : ملة الإسلام ، والرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول إن الله يحبّها لأنها سمحة ليس فيها ضيق ولا شدة . وضرب الله للمسلمين أعظم مثل للتسامح فى قوله تعالى بسورة البقرة : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجْرُهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ والله يسوِّى فى الآية بين المؤمنين واليهود والنصارى من أهل الكتب السماوية والصابئين عبدة الكواكب قائلا : إن من آمن منهم جميعا بوحدانيته وبالبعث وعمل عملا صالحا لنفسه ولغيره ، فكل هؤلاء لهم أجرهم وثوابهم عند الله يوم القيامة ، ولا خوف عليهم فيها ولا يلحقهم أى حزن . فأى تسامح أعظم من هذا التسامح حتى مع الصابئة الوثنيين إذا آمنوا بربهم وبالبعث . وعملوا عملا صالحا لهم ولمجتمعهم . والله بذلك – يلغى التعصب للديانات ، ويريد من المسلمين التسامح مع من يخالفهم فى الدين حتى لو كان من الصابئة عبدة الكواكب أومن المشركين ، وهو تسامح يبلغ بالحياة الإنسانية أقصى ما يريده الله لها من السمو .

ونرى الله بآيات مختلفة من القرآن يطلب من المسلمين أن يتسامحوا مع المشركين وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – نهى المسلمين أن يتصدّقوا على فقراء المشركين كما يتصدقون على فقراء المسلمين ، أملا فى أن يضطروهم بذلك إلى اعتناق الإسلام ، فأنزل الله على رسوله آية سورة البقرة : ﴿ليس عليك هداهم﴾ أى إنما عليك التبليغ والإرشاد فقط ، ودع الناس وما يختارون لأنفسهم من الدين ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضلَّ فعليها ضلاله ﴿ولكن الله يهدى مَنْ يشاء﴾ أى أن هداهم مفوَّض إلى الله وحده . ﴿وما تنفقوا من خير﴾ على فقراء المسلمين والمشركين ﴿ فلأنفسكم﴾ أى ثوابه يعود إليكم ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ لا للسمعة والشهرة والرياء وإنما ابتغاء وجه الله طلبا لرضاه ﴿وما تنفقوا من خير﴾ للمسلمين والكفار ﴿يُوَفَّ إليكم﴾ ثوابه كاملا ﴿وأنتم لا تُظْلمون﴾ أى دون ظلم يصيبكم . وهو طلب عظيم لتسامح المسلمين مع فقراء الكفار بمكة ، إذ كان وراءهم كثيرون من كفار مكة العتاة يؤذون المسلمين . والله حمل المسلمين على التسامح مع فقرائهم رحمة بهم وإشفاقا عليهم . وأكثر من ذلك يطلب الله من المسلمين أن يتسامحوا مع من كان يؤذيهم من كفار مكة الجبابرة العتاة قائلا فى سورة الجاثية : ﴿قل﴾ يا محمد ﴿للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيامَ الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون﴾ .

والآية نزلت فى نفر من أصحاب رسول الله أصابهم أذى شديد من كفار مكة الذين لا يرجون جزاء من الله فشكوا ذلك إلى الرسول ، فأمرهم الله أن يتجاوزوا عن ذلك ويغفروا لهم أذاهم معتصمين بالصبر كما قال الله فى سورة آل عمران : ﴿ولَتَسْمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أى من اليهود والنصارى ﴿ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ إذ الصبر حقا مفتاح الفرج . ويقول الله للمؤمنين فى آية الجاثية

السالفة : ﴿ليجزى قوما بما كانوا يكسبون﴾ أى لا تحاولوا الانتقام ممن يؤذونكم من المشركين فإن الله سيجزيهم بأذاهم لكم الجزاء الذى يستحقونه يوم القيامة . ويمتدح الله من يقدمون الطعام مع حبهم له إلى المساكين واليتامى ، وأيضا للأسارى فى سورة الإنسان قائلا : ﴿ويطعمون الطعام على حبه مِسْكينا ويتيما وأسيرا﴾ .

وكان أسراهم حينئذ مشركين – ومعروف أن قريشا هُزمت فى معركة بدر هزيمة ساحقة وأنه قُتل من صناديدها سبعون وأُسر سبعون ، وكان كثير منهم يؤذى المسلمين قبل هجرتهم إلى المدينة . ومع ذلك أمر الرسول المسلمين أصحابه أن يكرموهم فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء . وهو تسامح عظيم من الرسول والمسلمين لأعدائهم المكيين ومعاملة طيبة كريمة لهم . ويقول الله فى سورة الممتحنة للمسلمين : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتُقْسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ . والله يقول إنه لا ينهى عن البر والعدل وحسن المعاملة للمشركين الذين لم يشتركوا فى قتال المسلمين ولا اضطروهم إلى الخروج من مكة . وقد استحال هذا البر لغير المسلمين فى عصر الفتوح وبعده – على مر الزمن إلى اليوم – قانونا عاما للمسلمين فى تعاملهم مع أصحاب الملل الأخرى المسالمين لهم تعاملا سمحا كريما ، سواء أكانوا من أهل الكتاب أو كانوا وثنيين من الصابئة والمجوس وأمثالهم من الوثنيين فى آسيا وإفريقيا . والله – بذلك – وضع للمسلمين قواعد مُثْلَى فى تسامحهم مع كل الديانات ومع كل الأقوام ومع كل الأجناس والأعراق والألوان .

وكما أمر الله رسوله والمسلمين بالتسامح مع أهل الكتاب أمرهم أيضا بالعفو والصفح عن إساءاتهم ، كما قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿فاعْفُوا واصفحوا حتى يأتىَ الله بأمره﴾ والعفو : التسامح فى عقوبة الذنب ، والصفح : الإعراض

عن اللوم وتركه . وهما درجتان رفيعتان من التسامح ، ويحثُّ الله عليهما فى القرآن مرارا وتكرارا . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا رفيعا للتسامح . وكان كلما آذاه قرشيون أو ردُّوا عليه ردا منكرا حين يتلو عليهم القرآن رفع يديه إلى ربه ضارعا قائلا : اللهم اغفرْ لقومى فإنهم لا يعلمون . ولم يحدث أن انتقم من أحد أساء إليه ، أودعا عليه ، وفى غزوة أحد جُرح فى وجهه وكُسِرت رباعيَّته (السنّ بين الثنيَّة والناب) اليمنى السفلى بحجر وهشمت الخوذة على رأسه صلى الله عليه وسلم . ولم يؤاخذ أحدا – فى فتح مكة ممن صنعوا ذلك به ، بل سامحهم وعفا عنهم . وقد استسلم أهل مكة لجيشه ، وعُدُّوا بذلك جميعا أسرى حرب يُسْترقون ، غير أنه عفا عنهم جميعا وردَّ إليهم حرياتهم وقال : من دخل الكعبة فهو آمن ومن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

وكان أبو سفيان قد رأى نيران عسكر رسول الله بالقرب من مكة ، فذهب يستطلع ، فلقى العباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ويْحَكَ يا أبا سفيان ! هذا رسول الله فى جيش ضخم لا قبل لمكة به ، فقال له : فما الحيلة ؟ فقال له العباس : انهض معى إلى رسول الله ، ورآهما عمر ودخل على الرسول فى أثرهما ، وقال : يارسول الله هذا عدو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه بلا عقد ولا عهد ، فأْذَنْ لى أضربْ عنقه ، فأبى الرسول ذلك عليه . وكان ذلك تسامحا عظيما منه لرأس الكفار فى قريش ، وقال للعباس : احمله إلى رحلك حتى الصباح ، وفى الصباح أعلن أبو سفيان إسلامه ، وأكرمه رسول الله بأن قال من دخل داره فهو آمن ، وهو تسامح ثانٍ كريم لأبى سفيان شيخ قريش . وتسامح الرسول صلى الله عليه وسلم مع قريش – كما أسلفنا – تسامحا أعظم إذ لم يفرض عليها الاسترقاق ، وردَّ على أهلها حرياتهم حتى على من نكَّل بالمسلمين فى هزيمة أحد وأيضا على من حاول

مقاومة جيش الرسول فى دخول مكة مثل عكرمة بن أبى جهل ، وكان قد فرَّ متجها إلى اليمن ، فاستأمنت زوجته له الرسول فأمَّنه ، وأتت به الرسول فأسلم وحسن إسلامه . وهكذا لم يبق فى مكة قرشى – عادى رسول الله وحاربه – إلا سامحه بمجرد إعلانه لإسلامه وعفا عنه ، وقال لأهلها جميعا اذهبوا فأنتم الطلقاء جمع طليق ، وهو الأسير الذى فُكَّت عنه قيوده وخُلِّى سبيله . وهو تسامح لا مثيل له سارت به الركبان فى جميع أنحاء الجزيرة .

ومن أروع ما ذُكر عنه – صلى الله عليه وسلم – فى التسامح تسامحه مع وحشىّ قاتل عمه ومحبوبه : حمزة بن عبد المطلب فى غزوة أحد ، وكان أخا للرسول فى الرضاع ومن صناديد قريش ، ونصَر الرسولَ فى أيام الشدة والأذى من قريش للرسول وأصحابه ، وكان فى مقدمة الصفوف بمعركة أحد وأبْلَى فيها بلاء عظيما . وكان وحشى حبشيا يرمى بالحربة رَمْىَ الحبشة ، فرمى بها حمزة ، وحزن الرسول عليه حزنا شديدا . وأسلم وحشى فى فتح مكة ، ولم يؤاخذه الرسول – صلى الله عليه وسلم – أىَّ مؤاخذة . ولما نشبت حروب الردة انتظم فى جيش خالد بن الوليد ، وفى معركة اليمامة قَتل مسيلمة المتنبىء الكذاب بنفس الحربة . وكان – صلى الله عليه وسلم – لا يزال يدعو المسلمين إلى التسامح الكريم ، وكان يقول : « من سرَّه أن تُرْفَع له الدرجات (أى عند الله) فليعفُ عمن ظلمه ، ويُعط من حرمه ، ويصل مَنْ قطعه » . وهو يطلب من المسلم أن يسامح أخاه حتى لو كان ظلمه فى بعض حقوقه ، وحتى لو كان حرمه من عونه فى أيام حاجته إلى العون ، وحتى لو كان قريبا له وقطع ما بينهما من صلة الرحم والقرابة .

ويعمّ فى المجتمعات الإسلامية تسامح المسلمين فيها – منذ زمن الخلفاء الراشدين إلى اليوم – مع جميع أصحاب الديانات سماوية وغير سماوية إذ نراهم – منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب – يعاملون الصابئة عبدة الكواكب فى شمال العراق معاملة أهل الكتاب ، وبالمثل عاملوا المجوس عبدة

النار الإيرانيين ، وكانوا على دين زرادشت وما زعمه فى كتاب الأفستا من أن للعالم إلهين إلها للنور وإلها للظلمة ، واندثرت المجوسية من إيران مع القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى إلا قليلا ، بينما ظل من يدينون بدين الصابئة حتى نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . ودائما كان فى كل بلد إسلامى جماعات كبرى أو صغرى من النصارى وجماعات صغرى من اليهود ، وكانوا جميعا يعيشون مستقرين آمنين لا حاجز ولا فاصل بينهم وبين المسلمين ، أما ما يروى من أن النصارى واليهود أُلزموا بلبس حزام سمى الزُّنّار ، فكان ذلك فى فترات قصيرة جدا لعهد بعض حكام لم يفهموا دين الحنيفية السمح فهما سديدا . ومرَّ بنا فى حديثنا عن التعايش المادى والفكرى بين المسلمين وأهل الذمة من النصارى واليهود فى العراق والشام ومصر ما يدل على أنهم نعموا بحياة آمنة وتسامح عظيم ، مما دفعهم فى تلك البلدان إلى أن يتعربوا لسانا وفكرا ، وأن يترجموا كتبهم المقدسة إلى العربية ، وأن يقيموا الصلاة فى كثير من كنائسهم ومعابدهم بالعربية . ولم نبسط الحديث عن النصارى واليهود فى الأندلس والديار المغربية ، وما أظلهما فيهما من طيب العيش ، وحرى أن أصور — فى إجمال — ما أظلهما فيهما من التسامح الإسلامى .

أما النصارى فى الأندلس فقد كفل لهم المسلمون حريتهم الدينية وأن يظلوا على نصرانيتهم التى اختاروها لأنفسهم ، ولم يحدث أن أُجْبر أحد على ترك نصرانيته واعتناق الإسلام ، وصان المسلمون كنائسهم وأموالهم ، ولم يزعجوا قسيسا ولا راهبا ولا أسقفا ، بل احترموهم جميعا ، وظلوا — طوال وجودهم فى الأندلس — يعاملون النصارى معاملة حسنة ، ومما يصورها من بعض الوجوه أن نجد حاكم الأندلس الأموى محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) يفسح للإسبان المستعربين فى مناصب الدولة ، ويعين قومس بن أنتنيان متولى

جمع الضرائب من أهل الذمة كاتبا له يدير شئون الدولة ، واستعفاه من العمل يوم الأحد ، فأعفاه وأعفى جمع الموظفين ، حتى يستطيع المسيحيون منهم الصلاة فى هذا اليوم بكنائسهم . وأقبل كثير من الإسبان على اعتناق الإسلام لبساطته وسماحته ، وأقبل من لم يعتنق الإسلام على تعلم العربية حتى أتقنوا الكتابة بها شعرا ونثرا . وكان دائما بين المسلمين والنصارى فى الأندلس علاقات مودة وتعاون ، وهى تظهر فى تأثير فن الموشحات فى الأدب الإسبانى وانتقال هذا التأثير منه إلى الآداب فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا مع ما كان يصحب أغانيه من الموسيقى الأندلسية العربية . كما تظهر فى مساعدة مسلمى الأندلس لحركة الترجمة الكبيرة من العربية إلى الإسبانية فى عهد الملك الإسبانى ألفونسو العاشر الذى أحال مدينة طليطلة إلى مؤسسة كبرى لترجمة القرآن الكريم والفكر العربى وعلوم العرب ، وأنشأ فى مدينة مرسية ثم فى مدينة إشبيلية مدرسة أعانه فيها وفى مؤسسته بطليطلة علماء مسلمون استشعروا تسامح دينهم ونقلوا له كليلة ودمنة لابن المقفع وقصصا عربية مختلفة ، غير كتب علمية كثيرة فى الفلك وغير الفلك .

ويفضل التسامح الإسلامى العظيم الذى فرضه الله – جَلَّ شأنه – على المسلمين فى تعاملهم مع غيرهم فتح المسلمون أبواب الأندلس على مصاريعها لليهود ، فاتخذوها – طوال ثمانية قرون – ملجأ لهم وحصنا يحتمون به من اضطهاد الغرب لهم فى كل مكان ، واستطاع أحدهم ، وهو حسداى بن شبروط أن يصبح وزيرا سنة ٣٣٤ هـ/ ٩١٦ م لعبد الرحمن الناصر أهم حكام الأندلس الأمويين ، فبدأ حركة بعث الدراسات التلمودية ، وسرعان ما أصبحت الأندلس – برضا المسلمين – مركزا للدراسات العبرية . ولما جلا العرب عن الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م أخذ الإسبان يضطهدون اليهود اضطهادا شديدا إذ لم يعد هناك عرب مسلمون يحمونهم ، وازداد الاضطهاد شدة فى عهد فيليب الثالث ملك إسبانيا ، فإلى أين يذهبون ؟

إنهم لم يجدوا لهم ملجأ يحميهم سوى ديار الإسلام والمسلمين فى المغرب الأقصى ، فنزحت إليه جموعهم ، وتغلغلوا فى مدنه ، وعاشوا بها فى تسامح عظيم قرونا طوالا أثرَوْا فيها وتموَّلوا مالا كثيرا . وكل من يعرف تاريخ اليهود بين المسلمين وتعايشهم فى ديارهم طوال العصور الاسلامية وحمايتهم لهم وبخاصة فى الأندلس والمغرب قرونا بعد قرون يعجب أشد العجب من عدائهم الشديد – فى عصرنا – للمسلمين الفلسطينيين ، وإخراجهم من وطنهم وديارهم بالقوة مع التنكيل الشديد .

١٠

ترابط الأسرة

الأسرة هي الوحدة التى تتكون منها وحدات المجتمعات الاسلامية ، وقد أحاطها الله بتشريعات ، جعلتها تتضامن وتتماسك تماسكا وثيقا ، منذ نزلت تشريعات الإسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اليوم . وأول هذه التشريعات البِرُّ بالوالدين ، إذ جعله الله فريضة على الأبناء يؤدُّونها لآبائهم كما يؤدون عبادتهم لربهم ، ولذلك قرنه الله مرارا بعبادته فى مثل قوله تعالى فى سورة الإسراء : ﴿وقضى ربك ألا تعبدو إلا إياه وبالوالدين إحسانًا إمَّا يَبْلُغَنَّ عندك الكبر أحدُهما أو كلاهما فلا تَقُلْ لهما أفٍّ ولا تَنْهرهما وقُلْ لهما قولا كريمًا . واخفِضْ لهما جناحَ الذُّلِّ من الرحمة وقل رَبٌّ ارحمْهما كما ربَّيانى صغيرا﴾ . والله – فى الآية الكريمة – كما قضى بعبادته وألزمها الإنسان قضى بإحسان الابن لوالديه فى الأقوال والأفعال وكل ما يقدمه لهما من المواساة . وأمره إذا كبر أحدهما أو كبرا معا أن لا يلفظ لهما فى أمر متضجرا بكلمة ﴿أفّ﴾ ولا يوجه لهما كلمة نَهْر أو زجر تغضبهما : ﴿وقل لهما قولا كريما﴾ أى قولا لينا رفيقا . وأمره أن يفرط فى التواضع لهما إلى

درجة التذلل عرفانا لهما بتربيتهما له ورعايتهما إياه منذ أن كان فى المهد إلى أن بلغ الأشدّ ، وأمره أن يدعو لهما الله بالرحمة السابغة جزاء وفاقا لما بذلا فى تربيته منذ صغره .

ويوصى الرسول – صلى الله عليه وسلم – مرارا ببرّ الوالدين وسعة البذل والإكرام لهما ، ويحذر – بشدة – من عقوق الابن لوالديه ، وفى الحديث الصحيح أنه قال للصحابة : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ، قالها ثلاثا ، قالوا : بلى يا رسول الله قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين » . وبذلك جعل عقوق الأبوين من الكبائر ، وجعله قرينا للإشراك بالله تنفيرا منه وتخويفا من عقابه الأليم فى الآخرة . وأوصى الرسول الأبناء بالأمهات مرارا ومن ذلك حديثه المشهور : « الجنة تحت أقدام الأمهات » ويصور الله مشقة الأم فى حمل ابنها ورضاعته قائلا فى سورة لقمان : ﴿حملتْه أمه وَهنًا على وَهْن وفِصاله فى عامين﴾ وسأل صحابى الرسول – صلى الله عليه وسلم – قائلا : من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك ، قال : ثم مَنْ ؟ قال ثم أمك ، قال ثم من ؟ قال : ثم أمك ، قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك » . وليس ذلك تفضيلا للأم على الأب ، ولكنه تأكيد لما ينبغى من بر الأبناء بأمهاتهم . وقرر الله إذا مات الابن وكان له مال أن يكون لهما نصيب معين من تركته حتى يأمنا شرَّ الاحتياج فى شيخوختهما كما قال تعالى فى سورة النساء : ﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدسُ مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾ .

وأول ما شرع الله للأولاد من حقوق تحريمُ وَأْد البنات إذ كانوا يدفنونَهُنَّ وهن حيَّات بسبب ما هم فيه من فقر وأنهن قد يكلفنهم ما لا يستطيعون القيام به ، أو لشعورهم بفقرهم مستقبلا . وسجل الله ذلك عليهم فى سورة الأنعام قائلا : ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾ أى بسبب فقر وبالمثل فى سورة الإسراء قائلا ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾ . ويذكر الله مع الآيتين أنه يرزقهم

هم وأولادهم وبناتهم أى أنه هو الرزاق وأنه حين خلق الإناث قدر لهن ما يكون من أرزاقهن وكأنهم يتدخلون فى إرادة الله ، إذ يحرمون بناتهم من حق الحياة إلى انقضاء آجالهن . وحرم الله ذلك تحريما باتا متوعدا مَنْ لا ينتهى عنه بعذاب أليم فى الآخرة ، وانتهى عنه المسلمون قاطبة .

وجعلت الشريعة الإسلامية على الآباء حقوقا كثيرة لأبنائهم ذكورا وإناثا ، فعليهم أن يحسنوا تربيتهم وأن يرشدوهم دائما إلى السلوك الفاضل وأن يعدُّوهم – منذ سنتهم السابعة – لأداء فرائض الإسلام ، وأن يأخذوهم بالتعلم . ويجب على الأب أن يظل ينفق على ابنه فى تعليمه ، وحتى يستطيع الكسب لمعاشه ، وبالمثل البنت ، ويستمر الأب فى النفقة عليها حتى تتزوج فإن النفقة عليها حينئذ تصبح من واجبات الزوج .

ومن حق البنت أن تتعلَّم كأخيها وأن تتوظف وظيفة تكسب منها ما يسد حاجتها ، وبالمثل أن تحترف حرفة أو تعمل عملا يدرَّ عليها معاشها فى الحياة ، وإذا لم يكفها ما يعود عليها من العمل أو الحرفة أو الوظيفة تكفل الأب أو الزوج بالنفقة عليها .

وجعل الله للأولاد ذكورا وإناثا نصيبا فى تركات الآباء ، وكانت البنات والنساء عامة والصبية لا يرثون فى الجاهلية مما يقطِّع الصلات فى الأسرة ، إذ كانوا يورثون الابن الكبير فقط الذى يستطيع أن يشترك فى الدفاع عن القبيلة حين تهجم عليها قبيلة أخرى . ويقال إنه لما نزلت الفرائض التى بُيِّنَ فيها أنصبة الأبوين والذكور والإناث امتعض بعض العرب وقالوا تُعْطى الزوجة وتعطى البنت ويعطى الغلام الصغير وليس من هؤلاء أحد يقاتل عن قومه ويحوز الغنيمة . والله – بذلك – شَدَّ أواصر الأسرة ، وحمى النساء والأولاد الصغار من ضياعهم وأن يكونوا عبئا على غيرهم . وفى سورة النساء : ﴿يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثلُ حظِّ الأنثيين﴾ وإنما جُعل

نصيب البنت فى الميراث نصف نصيب الابن ، لأن عليه مسئوليات كثيرة ، منها حماية القبيلة والدفاع عنها ، وأنه يدفع صداقا للزواج ، ومنها أنه - وحده - المكلف بالنفقة على أسرته : زوجته وأبنائه ، وليست الزوجة مسئولة عن شيء من ذلك مهما كانت ثريَّة ، وأيضا عليه الإنفاق على والديه إن كانا محتاجين إليه ، وبالمثل على إخوته وأقاربه المحتاجين ، مما يجعل مسئولياته المالية كثيرة . وليس الغرض الربانى من حعل ميراث الأنثى نصف ميراث الذكر التفرقة فى الحقوق ، بل تنظيمها بطريقة عادلة .

وجعل الله زواج الرجل بالمرأة فى الإسلام رباطا مقدَّسا ، وكانت فى الجاهلية أشبه بمتاع للرجل يملكه وليس لها أى حق إزاء الزوج ، فردَّ إليها الإسلام كرامتها .وصان لها حقوقها كاملة . وكانوا فى الجاهلية إذا مات الزوج ورثوا امرأته كرها إذ يُلقى عليها الوارث لزوجها ثوبا له ، ويقول : ورثتها ، كما ورث ماله ، ويتصرف بها كما يريد ، فإن شاء تزوَّجها بدون صداق ، وإن شاء زوَّجها لغيره وأخذ صداقها ، وإن شاء حرَّم عليها الزواج ليرث مالها بعد موتها . وكل ذلك حرَّمه الله بقوله فى سورة النساء ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كَرْهًا﴾ أى كارهات غير راضيات . ويقول الله عقب ذلك : ﴿ولا تعضُلوهنَّ﴾ أى لا تضارُّوهنَّ فى العشرة (لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) من الصداق . ويقول الله عقب هذه الآية : ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثمًا مُبينًا . وكيف تأخذونه وقد أفْضَى بعضكم إلى بعض وأَخَذْنَ منكم ميثاقا غليظا﴾ . والله - جلَّ وعزَّ - يحافظ للزوجة على صداقها إن عزم الرجل على فراقها والزواج من غيرها ، فلا يحق له أن يأخذ منه شيئا ، حتى لو كان أصدقها قنطارا من الذهب ، وينكر على الزوج هذا الطمع ، وقد أفضى إلى زوجته وأفضت إليه ، وأخذت منه عهدا ، وسماه الله ميثاقا غليظا أى عهدًا موثقا أمام

الله . وينبغى أن يذكر ذلك المأذونون فى عقود الزواج وأنها عقود موثقة بالمودة والرحمة والتعاطف أمام الله .

ويقول الرسول فى خطبة حجة الوداع : استوصوا بالنساء خيرا فإنكم أخذتموهن بأمانة الله وعاشرتموهن بكلمة الله . وواضح أن الله يجعل الزواج الإسلامى رباطا مقدسا – كما قلت – يتم أمامه بحكمه وإرادته . وأباح الإسلام للرجل أن تتعدد زوجاته ، فيتزوج اثنتين وثلاثا وأربعا ، وهو إنما شرع هذه الإباحة ، لأن الأمم قد تتكاثر بينها الحروب كما حدث بين القبائل العربية فى الجاهلية فتموت كثرة من الرجال والشباب ، فإن لم توجد هذه الإباحة جرَّ ذلك إلى فساد كبير فى الأمة . وقد تمرض الزوجة بمرض مزمن . وأيضًا فإن الأمم التى تتمسك للرجل بزوجة واحدة يكثر فيها الأولاد غير الشرعيين ، فمنعا لهذه المفاسد أباح الإسلام تعدد الزوجات مع اشتراط العدالة بينهن . ومرَّ فى حديثنا عن العدل بين الزوجات أن الله يحتمه على المتزوج بأكثر من واحدة . وقد يقال إن الإسلام لم يسوِّ فى حق الطلاق وإنهاء الحياة الزوجية ، إذ أعطاه للزوج وحده . وهذا غير صحيح لأن المرأة لها حق طلب الطلاق والانفصال مثل الزوج تماما ، إذا ساءت العشرة ، غير أن الزوجة قلما تطلبه حفاظا على الأسرة مما جعل بعض الناس يظن أنه حق للرجل وحده ، ويقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – أبغض الحلال إلى الله الطلاق .

ومما يصور – بقوة – رغبة الله العليا فى أن لا يحدث طلاق وانفصال بين الزوجة وزوجها قوله تعالى للأزواج فى سورة النساء : ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ والمراد بالمعروف حسن الأقوال والأفعال . وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » وكان حسن العشرة لأزواجه يداعبهن ويتلطف معهن ويوسِّع عليهن فى النفقة . وكان كثيرا ما يجمع أزواجه

فى بيت من بعد بيت ، ويتناول العشاء معهن ، ثم تذهب كل منهن إلى بيتها . وكان يسمر مع أهله قليلا قبل النوم يؤانسهن بذلك . ويقول الله فى استمرار المعاشرة للزوجة المكروهة ﴿فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ أى فعسى أن يكون فى إمساكهن مع الكراهة خير كثير يعود على الأزواج كأن يرزق الله الزوجة المكروهة ولدا مباركا فيه خير كثير . ويصور الله الصلة الوثقى بين الزوجين بقوله عز شأنه فى سورة البقرة : ﴿هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباس لهن﴾ أى هن وأنتم لشدة الصلة بينكم كأن كل زوج وزوجة شخص واحد ، فكل منكما يستر الآخر ولا يذيع سره حين يحدِّثه عما فى سريرة نفسه .

ويصف الله ما بين الزوجين من الإخلاص والمحبة بقوله تعالى : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ . والله يذكر نعمته على الناس بأن وهبهم هبة عظيمة : زوجات خلقهن من أنفسهم ، أى أنه جعل فى فطرتهن إقبالهن على أزواجهن والائتناس بهم لأنهن من ذات أنفسهم ولذلك يقول الله ﴿لتسكنوا إليها﴾ أى لتجدوا عندهن الرضا والأنس وبهجة الروح ، ويقول الله إنه جعل بين الزوجين مودة ومحبة ، كما جعل بينهما رحمة تجعلهما متعاطفين ، وأى أذى يصيب أحدهما كأنما يصيب الآخر مع الرأفة به والوقوف دائما معه فى أى شيء ينزل به والحنو عليه حنوا بالغا . ويقول الله ﴿إن فى ذلك لآيات﴾ وعظات كبرى ﴿لقوم يتفكرون﴾ فى تلك النعم العظمى التى تهب الزوجين السكون والطمأنينة والمحبة والسعادة . وتوجب الشريعة الإسلامية الإنفاق على الزوجة مهما كانت ثرية ، فالزوج — وحده — الذى يتحمل النفقة على البيت ، وكل ما ينفقه على زوجته وأهله يثاب عليه يوم القيامة . ويقول الرسول إن أعظم الإنفاق عند الله الإنفاق على الأهل حقًّا للمسلم على الإنفاق على أبويه والزوجة والأولاد . ولكى يصون الله الزوجة ويحميها من الاحتياج جعل لها فى تركة

الزوج الربع إن لم يكن له ولد ، فإن كان له ولد فلها الثمن ، ليكفيها شر الحاجة .

ويقول كثيرون إن الإسلام لم يسوِّ بين الرجل والمرأة ، وليس ذلك بصحيح ، فقد سوّى بينهما فيما عدا ما يختلفان فيه فسيولوجيا من أجل التناسل والإنجاب ، إذ المرأة تحمل الجنين تسعة أشهر وترضعه نحو سنة ونصف ، والحمل والرضاعة خاصان بالمرأة تتميز بهما . أما الرجل فيتميز بأنه أكثر منها قوة ، ومن الظلم لذلك أن يقال إن المرأة والرجل متماثلان ، وهو ما جعل القرآن والحديث يعطفان عليها ويشفقان ويُلزمان الرجل لها بحقوق كثيرة . وقد سوّى الإسلام بينهما فى الفروض والنوافل الدينية من صلاة وصيام وزكاة وحج ، كما سوى بينهما فى ثواب الآخرة ونعيم الجنة ، يقول الله فى سورة غافر ﴿ومَنْ عمل صالحا من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنّة يُرْزقون فيها بغير حساب﴾ فالذكور والإناث عند الله سواء فى العمل الصالح مع الإيمان والثواب العظيم عليه . وسوّى بين الرجل والمرأة فى المسئولية الاجتماعية والسياسية كما قال فى سورة التوبة : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضُهم أولياءُ بعضٍ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أى أنهم يتناصرون رجالا ونساءً ، ويتعاضدون كما جاء فى الحديث الصحيح : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا » وبالمثل المؤمنة للمؤمنة وللمؤمن . ﴿ يأمرون﴾ رجالا ونساء ﴿ بالمعروف﴾ أى بالحق والخير فى صالح الأفراد والأمة ﴿وينهون عن المنكر﴾ أى الباطل والشر مما يتصل بالأفراد والأمة جميعا .

ومرّ بنا أن جارية لأم الخليفة العباسى المقتدر تولت القضاء والحكم بين الناس فى بغداد لأوائل القرن الرابع ، ومعروف أن شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب تولت شئون سلطنة مصر بعد وفاته وضُربت السِّكّة باسمها وخُطب لها على المنابر . وفى هذا القرن العشرين جعل مصطفى كمال

أتاتورك للمرأة التركية المسلمة حق الترشيح فى الانتخابات ودخلت المجالس النيابية ، ونالت هذا الحق فى مصر لعهد عبد الناصر ، وتولت بعض الوزارات إلى اليوم . وفى أوائل التسعينيات من هذا القرن كان يرأس الوزارة فى الباكستان وتركيا وبنجلاديش سيدات مسلمات فضليات يأمُرْن بالمعروف في دولهن وينهين عن المنكر . وفى ذلك دليل واضح على أن الإسلام لم يتأخر بالمرأة المسلمة كما يزعم أعداؤه إذ أتاح لها دائما من الحرية ما جعلها تتطور مع العصور حتى أصبحت رئيسة وزراء ، مثلها فى ذلك مثل المرأة الغربية فى آخر حق حصلت عليه .

ويقول الله - تبارك اسمه - فى سورة النساء : ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ والله - بذلك - يسوى بين المرأة والرجل فى الاكتساب ، وهو السعى لأى وجه من وجوه الكسب عاملة وموظفة ومدرسة . ويتبع ذلك فى الإسلام استقلالها الاقتصادى عن أبيها وزوجها مما أتيح للمرأة المسلمة منذ أربعة عشر قرنا ، بينما لم تطفر به المرأة الغربية حتى اليوم ، إذ تقرِّر الشريعة الإسلامية أن للمرأة المسلمة أن تشترى وتبيع وتتجر فى مالها وأن ترفع إلى القضاء خصوماتها دون أخذ إذن من أبيها أو زوجها . ولكل هذه الحقوق المكفولة للمرأة المسلمة الراشدة كانت لا تتزوج شخصا إلا بموافقتها ورضاها ، ولا تفقد اسم أبيها وأسرتها فى الزواج كما يحدث للمرأة الغربية حين تتزوج ، إذ يضاف اسم زوجها إليها ، بينما المرأة المسلمة تحتفظ باسمها الشخصى واسم أبيها واسم أسرتها للدلالة على اكتمال حريتها فى التصرف بأموالها وسائر شئونها الاقتصادية .

وللمرأة المسلمة مشاركة خصبة - من قديم - فى العلوم والآداب ويتحدثون كثيرا فى الآداب الغربية عن منتديات (صالونات) فى القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد لسيدات فرنسيات أديبات كان يلتقى فيها كبار

الأدباء والمفكرين فى فرنسا . وقد يعجب القارىء إذا عرف أن السيدة سكينة بنت الحسين كان لها فى القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى مجلس وقور بالمدينة كان يؤمّه شعراء عصرها الأفذاذ وينشدونها أشعارهم وكثيرا ما كانت تفاضل بينهم وتعلق على أشعارهم بالنقد وتجيزهم . ونلتقى فى الأندلس بالقرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى بمنتدى للسيدة ولادة بنت آخر الخلفاء الأمويين هناك . وكانت شاعرة ، وكان يحضر مجلس منتداها ابن زيدون وغيره من الشعراء والأدباء فى قرطبة . ومثل منتداها منتدى فى دولة المرابطين أوائل القرن الحادى عشر الميلادى للسيدة حواء زوجة سير بن أبى بكر حاكم إشبيلية لمدة ٢٧ عاما . وكان منتداها بقصر الإمارة وكانت تحاضر فيه الشعراء والكتّاب والمتفلسفة ، وتستمع إلى حوارهم ، وتشارك فى نقد ما ينشد الشعراء من أشعارهم . وعلى شاكلة منتداها منتدى حفصة الركونية بغرناطة فى القرن الثانى عشر . وهؤلاء النساء المسلمات يسبقن نساء فرنسا — بقرون تلو قرون — إلى إقامة المنتديات الأدبية والفكرية ، مما يدل على أن القول بتأخر النساء المسلمات عن النساء الغربيات فيما أتيح لهن من حرية فى إقامة المنتديات الأدبية قول مخطىء أشد الخطأ .

وفى الحق أن النساء كان لهن مكانة رفيعة فى المجتمعات الإسلامية ، وخاصة الزوجة .. فهى ربة البيت ومدبرة المعيشة فيه وصاحبة الأمر والنهى فى شئونه وأم البنات فيه والبنين . وجميع الزوجات كن متعلمات كما أراد لهن الإسلام . وكثيرات منهن أظهرن تفوقا فى العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل ، وكثيرات منهن كن أشبه بوزيرات لأزواجهن من الخلفاء والحكام مثل أَرْوَى زوجة أبى جعفر المنصور المؤسس الحقيقى للدولة العباسية ، ووهبها ضيعة فوقفتها على ذريتها من الأرامل اللائى يموت عنهنّ أزواجهن والعوانس اللائى لم يتزوجن حفظا لكرامتهن وصيانة لهن . والخيزران زوجة ابنه المهدى

كانت الآمرة الناهية فى الدولة وشئون الحكم ، وبمشورتها ردَّ المهدى إلى أبناء الأمويين ما صادره العباسيون من أملاك آبائهم . وزبيدة حفيدة أروى زوجة هرون الرشد ، أمرت بحفر عينٍ سميت عين زبيدة أمدَّت بمائها العذب مكة وسكانها ومن ينزل بها من الحجاج . وحسبنا هؤلاء الزوجات الثلاث اللائى ذكرتهن ومثلهن كثيرات فضليات فى تاريخ النساء المسلمات اللائى كن دائما محل إعزاز من أزواجهم المسلمين شرقا وغربا . ولا أشك فى أن ما رآه الغربيون – إسبانا وغير إسبان – من منزلة رفيعة للمرأة المسلمة فى المجتمع الأندلسى هو الذى دفعهم إلى محاكاة المسلمين فى إسباغ ما يقرب من هذه المنزلة على المرأة فى ديارهم الغربية . ولعله قد اتضح المدى الذى صان به الإسلام حقوق المرأة المسلمة وحافظ به على كرامتها ، وهى محافظة وصيانة أحاط الله بهما أفراد الأسرة جميعا : الأبوين والزوجين والأبناء والأقرباء ، إذ جعلهم يترابطون عن طريق الاشتراك فى الميراث وواجبات البر والمودة والرحمة ترابطا ربانيا وثيقا . وهو ترابط جعل من الأسرة المسلمة أسرة مثالية ، وحرىٌّ بأسر البشرية أن تترسَّمها وتتخذ منها قدوة مثلى .

١١

السلوك القويم

رأينا الله – عزْ شأنه – فيما مر بنا – يدعو البشر عامة والمسلمين خاصة دعوة عالمية كبرى إلى أن يتمسكوا بمجموعة من الفضائل تسعد البشرية إن تمسكت بها وتسعد المسلمين فى الدنيا والآخرة . من ذلك فضيلة استخدام العقل فى كل شيء : فى الدين وغير الدين ، وفضيلة العلم التى جعلت المسلمين – ذكورا وإناثا – يشغفون بكل أنواع العلم الدينى وغير الدينى ، وفضيلة العدل الذى لا تستقيم حياة أى فرد أو شعب بدونه ، وفضيلة المساواة بين

جميع الأجناس والأعراق ، وفضيلة التسامح مع جميع أصحاب الديانات إلهية ووثنية .

وفضائل كثيرة يدعو إليها الإسلام ، منها فضيلة العمل ، يقول الله تعالى فى سورة التوبة : ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسولهُ والمؤمنون﴾ . والإسلام – بذلك – دين عمل ، إذ يحثّ على العمل فى عبادة الله صلاة وزكاة وصياما وحجا ، والعمل للمعيشة فى الأرض بشقّها وإلقاء البذور فيها وتعهدها حتى تؤتى ثمارها . وتختلف الزراعات كما تختلف الصناعات والتجارات ، فهذا زارع وذاك بستانى ، وهذا صانع أثاث وذاك صانع سيارات ، وهذا بقّال وذاك تاجر أقمشة ، إلى مالا يحصى من صناعات وتجارات شتى . ويحثّ الرسول المسلمين – بقوة – على العمل حتى كأنه عبادة ليكسب المسلم معاشه ، ولتكون له مهنة يستغنى بها عن سؤال الناس ، وحتى لا يكون عالة على المجتمع . ولا يُذْكر المؤمنون فى القرآن إلا ويذكر معهم العمل الصالح أى العمل الحسن فى العبادة وغير العبادة . وينهى الرسول مرارا عن البطالة والقعود بدون عمل ، ويقول عمر بن الخطاب للصحابة : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر دهبا ولا فضة » .

ويحث الله على الوفاء بالعهد قائلا فى سورة الإسراء : ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا﴾ والعهد – فى الآية – يشمل عهد الله الذى أودعه فى فطرة البشر أن يعبدوه وحده ، وأن يعتنقوا دينه وشريعته ، كما يشمل العهود بين المسلم وأخيه فيؤديها وافية ، وبالمثل بينه وبين زوجته وأبويه وأبنائه وأقربائه . ومن الوفاء بالعهد الوفاء بالعقود كما قال تعالى فى سورة المائدة : ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ التى تعقدونها كعقود المعاملات فى البيع والشراء وعقود الإيجارات للأرض والمنازل وعقود المصالحات بين الأفراد والأمم والمعاهدات بين الدول الإسلامية والدول . ونهى الرسول بشدة عن نقض العهد وعدم الوفاء به وسماه غدرا وقال : لكل غادر لواء يوم القيامة يُرْفع بقدر غدره .

ومن فضائل المسلمين التى وصفهم الله بها فى سلوكهم بعضهم مع بعض قوله فى سورة الفتح : ﴿رُحَمَاءُ بينهم﴾ أى أن كلا منهم يرحم أخاه ، فالقوى يرحم الضعيف والغنى يرحم الفقير ، والسليم يرحم المريض . والرحمة : الرقة والعطف والحنو والرفق ، فالمسلم لا يكون فظا غليظ القلب لأخيه ، بل يكون قلبه مملوء شفقة ورأفة ، يرفق به ويعطف عليه . ويطلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - من المسلم أن يعامل خادمه بمنتهى الرفق . كما يطلب منه أن لا يبخس عاملا فى أجره وأن لا يكلفه بشىء فوق طاقته . والأحاديث كثيرة فى الرفق بالدواب فيما تحمله وأن لا يرهقها صاحبها بأى صورة من الصور . وإنه ليشدد بالرحمة فى الحيوان كما شدّد بها فى الإنسان ومن قوله فى صحيح مسلم : « عُذِّبت امرأة فى هِرَّة ، حبستها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار ، لا هى أطعمتها ولا سقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خَشَاش الأرض » أى هوامِّها وحشراتها ، وكان ما يزال يدعو إلى الرحمة والرأفة بالحيوان ، وفى صحيح البخارى قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « بينما رجل يمشى بطريق اشتدَّ عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى ، فنزل البئر ، فملأ خفَّه (حذاءه) ماء ثم أمسكه بفمه ، حتى رقى (صعد) فسقى الكلب ، فشكرا الله له ، فغفر له وأدخله الجنة » . وهى رحمة بالغة بالحيوان كالرحمة بالإنسان ، والإسلام - بذلك - جدير بأن يسمى دين الرحمة .

وسلوكيات كثيرة كريمة يحث الله ورسوله المسلمين أن يستشعروها ، وقد أوصيا المسلم أن يكون لديه شعور بالكرامة والعزة ، فلا يخشى أحدا إلا الله ولا يرهب سواه ، ودائما يقول الحق لا يخشى فيه لومة لائم . وسُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الجهاد أفضل ؟ فقال : كلمة حق عند سلطان جائر . وكان دائما يقول : ينبغى للمسلم أن لا يذل نفسه وأن لا يرهب أحدا فى قول الحق ، فإن قوله لا يقرِّب به من موت ولا يباعد بينه وبين رزق . ويثنى الله مرارا

على الصادقين والصادقات ، وأن لهم فى الآخرة نعيما عظيما . والصدق أنواع : صدق المسلم مع الله فى الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مع أداء الفرائض من الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وصدق مع الزوجة فى معاشرته لها والنفقة ، وصدق مع الآباء والأبناء فى أداء مطالبهم ، وصدق مع الأقارب فى عونهم ومساعدتهم ، وصدق فى جميع الالتزامات والمعاملات مع الناس . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم إن الرجل ليظل يصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقا ، مشيرا بذلك إلى قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقا﴾ .

ويوصى الله رسوله بالتواضع للمؤمنين قائلا فى سورة الشعراء : ﴿ واخْفِضْ جناحَك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ أى عاملهم باللين والتواضع . وكان شديد التواضع للصحابة ، وتذكر زوجاته والصحابة عن تواضعه أحاديث كثيرة ، مرت بنا منها أمثلة متعددة ، وكان دائما يوصى الصحابة بالتواضع ويقول : من تواضع لله رفعه أى فى الدنيا بمحبة الناس ووداهم له ، وفى الآخرة بجزاء الله له عن تواضعه جزاء حسنا . والتواضع لله ورسوله إنما يكون بتعظيمهما واتباع شريعتهما ، أما التواضع للناس فمنه محمود مقبول ، ومنه مذموم مرفوض ، فأما المحمود فالتواضع للأبوين والأهل والأصدقاء والأصهار ، وأما المذموم فلمن يشعرون بالزهو والفخر ولأهل الظلم من الحكام .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يمتدح الحياء ، ويقول إنه شعبة من الإيمان إذ يحجز صاحبه – مثل الإيمان – عن المعاصى فكأنه شعبة منه ، وهو من شيم الرسول ، إذ كان – كما جاء فى الحديث الصحيح – أشدَّ حياء من العَذْراء فى خِدْرها أى بيتها . ويُرْوَى أنه كان إذا رأى شيئا يكرهه لم يتكلم حياء ، غير أن تغيرا كان يعترى وجهه الكريم ، فيعرف الصحابة كراهيته له ، ومن قوله – صلى الله عليه وسلم – كما فى صحيح البخارى (إذا لم تستح فاصنع

ما شئت) أى إذا لم تستح من الذنب ولم تخجل من العيب والعار فافعل ما يدور بنفسك حسنا أو سيئا ، وهو أمر يراد به التوبيخ والتهديد .

ويوصى الله ورسوله المسلم فى سلوكه بالصبر عند حلول المحن والكوارث فلا يجزع بل يكبح نفسه بإرادة قوية متحملا ما نزل به فى ثبات دون أى ضجر أو جزع ، وقد ذكره الله فى القرآن الكريم مرارا وتكرارا ليستشعره المسلمون فى الحرب والجهاد وفى كبح النفوس عن الشهوات وفى تقبل البلاء والخطوب عن رضا ، ويقول الله فى سورة الزمر : ﴿إنما يوفىَّ الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ فثوابهم عند الله لا حدود له ، ويقول جَلَّ شأنه فى سورة البقرة : ﴿وبَشِّر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون﴾ فهم يسلِّمون كل أمورهم لربهم بل يسلمون أنفسهم له يتصرَّف بها كيف يشاء ، وسيرجعون إليه يوم القيامة ليجزيهم الجزاء الأوفى ، ويبشرهم الله جزاء صبرهم على ما يتجرَّعونه من غصص المحن والآلام بأنه يمنحهم صلوات ورحمة وهدى ، وهى منن ونعم عظيمة . ويطلب الله ورسوله من المسلمين الحلم نقيض السفه ، وهو أناة وضبط للنفس بحيث يكظم الحليم غيظه عند سماعه ما يؤذيه من شخص ، فيمسك عنه لسانه ، مهما امتلأ غضبا ، ولا تَنِدّ منه كلمة نابية مما يدل على قدرته فى قهر إرادته وأنه يستطيع تحمل الأذى إلى أبعد غاية . وكثير من المسلمين اشتهروا بالحلم وفى مقدمتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان إذا سمع كلمة تؤذيه من أعرابى جاف ابتسم ولم يرد عليه ، وكان يعفو دائما ويصفح . ويحث الله ورسوله الكفلاء والأوصياء على رعاية اليتيم والرفق فى معاملته ، وأن لا يأخذوا من ماله فى كفالتهم له ما يزيد عن أجر أمثالهم ، وإذا بلغ سن الرشد يردون عليه ماله ، ويتوعّد الله آكل مال اليتيم بعذاب أليم . ويحض الله ورسوله على إكرام الجار والضيف . ويحث الرسول مرارا

على زيارة المريض دعما للصلة والمودة معه ومع أهله ، وبالمثل يحث على المشاركة فى تشييع الجنازات والصلاة على الموتى توثيقا للعلاقات بين المسلمين .

ورأى الله - لمصلحة البشرية والمجتمعات الإسلامية - أن ينحّى عن السلوك القويم فيهما كل ما يضرهما ضررا بالغا من الأفعال الشريرة والأقوال المستقبحة ، فحرَّم فى القرآن وعلى لسان رسوله طائفة كبيرة من المضار المفسدة ، من ذلك الزِّنا أكبر الذنوب والآثام ، يقول الله فى سورة الإسراء : ﴿ولا تقربوا الزِّنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ أى أنه شديد القبح لما يؤدى إليه من عار الأبد والإعراض عن زواج الفتاة وانفصال الزوج عن الزوجة ، مع العقوبة الشديدة . وحرَّم الله الخمر وما يماثلها من المخدرات مثل الأفيون والحشيش والكوكايين لإنفاق المال فيها جميعا عبثا ، ولما يصحبها من الغواية ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لعُنت الخمر (ومثلها أخواتها المذكورة) وشاربها وساقيها وبائعها ومُبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وعاصرها ومعتصرُها وآكل ثمنها » . ويجمع الفقهاء على أن ما يسكر كثيره فقليله حرام . وبالمثل حرَّم الله الميسر ، وهو القِمار ، لما يصحبه من إهدار المال وإنفاقه لعبا وعبثا ، ولما يجر إليه بين المتقامرين من البغض والعداوة . وحرم الله الرِّبا وهو ما يشترطه المقرض للمال على المقترض له من زيادته حين يؤديه إليه ، وهو ابتزاز إذ يشترطه المقرض دون أى عوض ، ومن شأنه أن يؤدى إلى انقطاع المعروف والتعاطف بين أفراد الأمة مما عملت الشريعة على قيامه وإحكامه . وليس من الربا استثمار المال فى البنوك لخلوه من الابتزاز ، إذ البنك وصاحبه يستفيدان منه . وحرَّم الله الكبر وهو التعالى على الناس ، لأنه يتعارض مع ما أوجبه الإسلام بين المسلمين من التآخى الحميد بحيث لا يتعالى مسلم على مسلم بجاهه أو بثرائه .

وحرم الله شهادة الزور وجعلها الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الكبائر الكبرى المساوية للإشراك بالله ، وعقابها - لذلك عند الله - عقاب

شديد . وحرّم الله الظلم بجميع صوره قائلا فى سورة إبراهيم : ﴿ولا تحسبنّ الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصار﴾ . والله يقول إنه غير غافل عما يرتكب الظالمون ، إنما يمهلهم ويؤجل عقابهم إلى يوم القيامة الذى تشخص فيه الأبصار ولا تطرف من شدة الهول والفزع ، ويكمل الآية الكريمة قائلا فى وصف الظالمين حينئذ ﴿مهطعين﴾ أى مسرعين فى السير إلى الداعى ﴿مُقْنِعِى رءوسهم﴾ أى مطأطئين لها من الذل ﴿لا يَرْتَدُّ إليهم طَرْفُهم﴾ أى لا تتحرك جفونهم من شدة الفزع ﴿وأفئدتهم هواء﴾ أى قلوبهم خالية من العقل لشدة الهول وما يتوقعون من العذاب الأليم .

وحرَّم الله ورسوله الكذب سواء الكذب على الله بتحليل ما حرَّمه وتحريم ما أحلَّه . أو الكذب على الرسول – صلى الله عليه وسلم – بوضع أحاديث كاذبة على لسانه ، أو الكذب على الناس فى الأقوال والأفعال . ومن الناس من يصبح الكذب له عادة ، وهى عادة رذيلة إذ تسقطه فى أعينهم ، وسُئل الرسول أيكون المؤمن جبانا ؟ قال نعم ، فقال السائل أيكون بخيلا ؟ قال : نعم ، فقال السائل أيكون كذابا ؟ قال : لا . وشدَّد الله ورسوله فى تحريم اليمين الكاذبة ، وقال الرسول إنها من الكبائر ، ونهى عن الحلف بغير الله . ويكثر الناس من الحلف بحياة الأب وبتربته أو قبره ، وهو مكروه . ولا يؤاخذ الله الحالف باللغو فى يمينه ، فى مثل : لا والله ، وبلى والله ، مما يصدر عن الحالف عفوا . وحرم الله الحسد على ما يُنْعم به على بعض الناس من النعم الكثيرة ، وكأنما تغيظ الحاسدَ فيتمنى زوالها مما يجعله ساخطا على ما تفضَّل الله به على المحسود من النعم ، منغَّص المعيشة طويل الحسرات لا راحة له . وينهى الله والرسول عن الخداع وهو إظهار الخادع الشيءَ بخلاف ما يخفيه منه ، وله صور كثيرة ، ومنه التدليس فى البيع إذا لم يبين البائع للمشترى عيب ما يشتريه . ومنه الغِش ، وقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – مَنْ غَشَّنا فليس منا .

ونهى الرسول – بقوة – عن اللعن والسب للمسلم ، وجعل ذلك كبيرة يأثم بها من يلعن مسلما أو يسبُّه إثما كبيرا . ونهى بشدة عن لعن الحيوان . وذكر الله فى سورة الحجرات طائفة من المحرمات التى تفسد علاقات المودة بين المسلمين قائلا : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قوم من قوم﴾ أى لا يهزأ أحد بأحد ﴿عسى أن يكونوا خيرا منهم﴾ أى عند الله (ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيرا منهن ولا تلْمزُوا أنفسكم﴾ أى لا يطعن بعضكم على بعض . ويقول – جَلَّ شأنه – : ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم﴾ . والله يوصى المسلمين بأن لا يسيئوا الظن بعضهم ببعض حين يسمعون كلمة يلفظ بها بعضهم فيحملونها على الشر ، وأولى أن يحملوها على الخير إذا وجدوا لها فى الخير محملا .

ويقول الله : ﴿ولا تجسَّسوا﴾ وينهى الرسول صلَّى الله عليه وسلم – عن التجسس على عورات أى مسلم ، ويقول : مَنْ ستر عورة مؤمن فكأنما أحيا موءودة من قبرها . ويقول الله : ﴿ولا يَغْتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه﴾ والغيبة ذكر أخيك المسلم بما يكره . وتمثيلها بأكل لحم الأخ الميت تشديد من الله فى النهى عنها ، فإن عقوبتها شديدة مثل الاستهزاء والظن السيىء والتجسس . وحرَّم الله النَّميمة وذمَّها وهى الوشاية ، والنمام يسعى بها لإفساد العلاقات بين الناس ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة نمَّام . وينهى الله ورسوله عن الشماتة بالمسلم حين تنزل به مصيبة أو محنة ، إذ الواجب على المسلم أن يواسىَ أخاه حتى يتخلص من المحنة ، وقد يتخلص وتنزل بالشامت محنة مماثلة .

ونختم حديثنا بخصال من آداب السلوك التى أوجبها الله على المسلمين ، من ذلك ما أوجبه فى المجالس قائلا : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا فى المجالس فافسَحُوا يَفْسحِ اللهُ لكم﴾ والله يطلب من المسلمين الجالسين فى

أحد المجالس إذا قدم عليهم بعض إخوانهم أن يتوسعوا لهم ليجلسوا معهم سواء كان ذلك فى مجلس وعظ أو مجلس علم . ويقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « لا يقيم الرجل رجلا من مقعده فى مجلس ، ويجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسَّعوا » لما فى التوسع من مواساة مستحبة . ومن آداب المجالس إن جاءها شخص متأخرا لا يحاول التقدم إلى صدرها والقعود فيه ، بل يفعل كما كان الرسول يفعل إذ كان يجلس حيث انتهى به المجلس . ونهى الرسول نهيا باتا عن القيام فى المجالس وغيرها له أو لأى شخص ، وكان يقول إن ذلك من شعار العجم . وإذا حدَّث شخص أخاه فى مجلس أقبل عليه – كما مرَّ بنا – وأصغى إليه منصتا دون أى محاولة لمقاطعته فى كلامه .

ومن آداب السلوك الواجبة على المسلم الاستئذانُ فى دخول البيوت التى يزورها كما قال الله تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تَسْتأنسوا وتسلِّموا على أهلها﴾ أى حتى تستأذنوا أهلها سواء أكانوا أقرباء أو غير أقرباء ، فلابد أن تستأذنوا حتى يستعد صاحب البيت لاستقبالكم ، إذ قد يكون فى البيت ما ينبغى ستره على الضيف . وحتى إذا كانت الزيارة لسيدة من المحارم ، فقد تكون فى حاجة إلى تغيير ملابسها . ظروف مختلفة قد تُحْرِج صاحب البيت إن دخل عليه زائر بدون استئذان . وهو أدب عظيم أوجبه الله على الزائر . وفى الحديث الصحيح أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال : الاستئذان ثلاث مرات ، فإن أُذن للزائر دخل وإلا رجع . وعلَّم الصحابة صيغة الزيارة ، وهى قول الزائر السلام عليكم أأدخل ؟ وكره الرسول من الزائر إذا سُئل من هو ؟ أن لا يفصح عن اسمه ويجيب بقوله : أنا ، لأنها لا تعيِّن شخصيته . ومما يروى من لطف الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى الاستئذان أنه قدم المدينة من إحدى غزواته مع جيشه نهارًا ، فأقام ببعض ضواحيها مع جنوده وقال لهم تمهلوا وانتظروا حتى ندخل المدينة مساء ، وحتى تمتشط الشَّعِثة (متلبِّدة الشعر) وتتزين التى غاب عنها زوجها . وهو لطف عظيم من الرسول إذ توقف فترة بجنوده المقبلين معه نهارًا من غزوة بإحدى

ضواحى المدينة حتى تأخذ الزوجات الفرصة ليتزينَّ قبل اللقاء بأزواجهن احتفاء بهم .

ومن آداب السلوك الواجبة على المسلم حين يلقى أخاه أن يحيِّيه بالسلام ويصافحه . وفى الحديث أن صحابيا قال : يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحنى له ؟ فقال لا ، قال أفيأخذ بيده ويصافحه ؟ قال نعم . ويقول الله فى سورة النساء : ﴿وإذا حُيِّيتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها أو رُدُّوها﴾ والله يوجب على المسلم إذا حيَّاه أخ مُسلم بتحية أن يرد عليه بأحسن منها أو بمثلها . وتحية الإسلام هى : السلام عليكم ، والرد بمثلها هو : وعليكم السلام ، والرد بأحسن من ذلك هو : وعليكم السلام ورحمة الله ، أو مع بلوغ الغاية فى رد التحية فيقول : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . وقد يقول المحيِّى ابتداء : السلام عليكم ورحمة الله ، فيكون الرد بمثلها أو مع زيادة كلمة : وبركاته .. أما إذا كانت تحية السلام كاملة هكذا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيكون الرد مثلها كاملا .

وواضح أن صور التحية السابقة للمسلمين بالسلام فى التقاءاتهم اليومية إنما هى دعوة واضحة لنشره فى الأرض بين البشر جميعا ، إذ يجب على المسلم أن يحيِّىَ المسلم وغير المسلم– ويرد عليهما– بتحية السلام . وهو يكررها كل يوم فى الصلاة مع التحيات لله مرارا . وبهذه التحية اليومية كان الإسلام أول داع للسلام فى الأرض بقوة منذ أربعة عشر قرنا أو تزيد . وسمَّى الله الجنَّة فى القرآن دار السلام حثًّا عليه ، وقال مرارا إن تحية أهل الجنة سلامٌ كما قال عنهم فى سورة الرعد : ﴿والملائكةُ يدخلون عليهم من كل باب . سلامٌ عليكم﴾ فهم يحيون المسلمين الفائزين بنعيم الجنة بنفس تحية السلام التى أشاعها فيهم الإسلام . وجعل الله السلام اسما من أسمائه الحسنى . وكل ذلك دعوة إسلامية إلهية قوية ليعم السلام فى أنحاء المعمورة بين المسلمين وجميع الأمم ويشعر البشر بأن الأرض كلها وطن لهم وأنهم جميعا إخوة متحابون .

فهرس



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع 1999

١٢٥ قرشا